الثقافة

أدبية فكرية جامعة

تصدر شهرياً في دمشق تأسست عام ١٩٥٨

مؤسسها ورئيس تحريرها
مدحة عكاش

MADHAT AKKACHE
FONDATEUR ET REDACTEUR
EN CHEF DE LA REVUE
AL THAKAFA

ص . ب: /٢٥٧٠/
هاتف: ٢٣٢٣٠٦١
فاكس: ٢٣٢٠٨٨٧
دمشق

P.O. BOX: 2570
TEL: 2323061
E-Mail: AndreeKara@Mail.sy

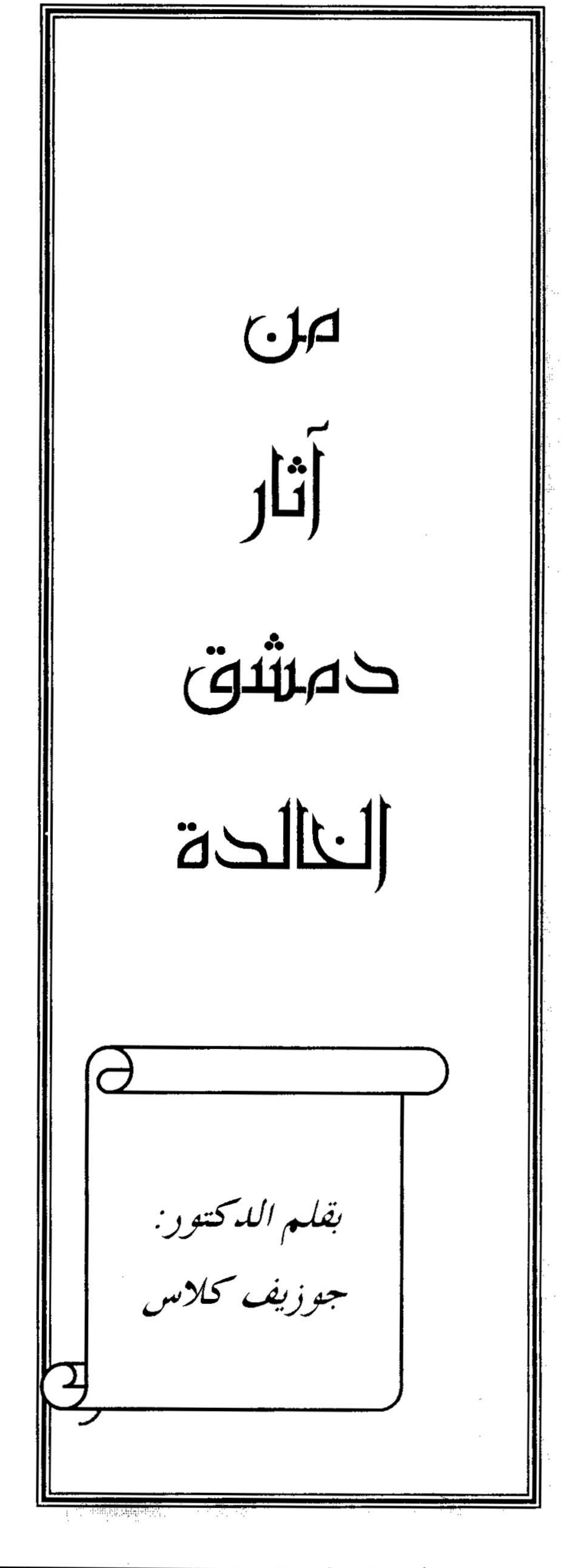
أمينة التحرير : سكينة عكاش الغبرة

صفر ١٤٣٠ هـ

كانون الثاني ٢٠٠٩ م

بسم الله الرحمن الرحيم

كتّاب العدد



قلعة دمشق:

تقع القلعة في الزاوية الشمالية الغربية من دمشق القديمة، أنشأها تاج الدولة تتمش على يدي قائده أتسز في القرن ٥ هـ/ ١١م من أجل تحصين دمشق وكان سور دمشق خربا، فاستعان بحجارته القديمة، وأقام القلعة لتكون مأوى له ولجنوده وليدافع عن دمشق ضد الخطر الصليبي.

بنى نور الدين محمود فيها دار المسرة ودار العدل، وأدخل الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بعض الإصلاحات، واستكمل فيها المنشآت اللازمة للحكم والسكن وبنى فيها مسجداً. أما العادل سيف الدين أبو بكر (أخو صلاح الدين) فقد اهتم بها اهتماماً كبير، أعاد إنشاءها من جديد وبنى أبراجها العالية، وحشد من أجل عمارتها عدداً كبيراً من العمال استمروا اثنتي عشرة سنة حتى غدت القلعة مستوفية أحسن شروط الدفاع المعروفة في ذلك العهد ومستلزماته، إلاّ أن المغول عند هجومهم على دمشق، خربوا أجزاء كثيرة منها ونهبوها. أصلحها المماليك فيما بعد باستمرار.

أبعاد القلعة في عهد الملك العادل ٢٢٠ × ١٦٠م يمثل بابها الشرقي (من العصرونية) فخامة الأسلوب العربي في فن العمارة، كما يمثل مخططها وريازتها الفن العسكري في العهود العربية الإسلامية الخالية.

البيمارستان النوري:

البيمارستان كلمة فارسية تعني (المستشفى) وهو يقع في منطقة الحريقة

حالياً، ولا تزال البقعة هناك مسماة باسمه. عمّره نور الدين محمود سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م، بناؤه الخارجي بسيط جداً يدل على التقشف المفروض على ذلك العصر بسبب وقوع البلاد في حالة حرب مع الصليبيين، ولكن مع ذلك يوجد في هذا البناء إبداع يتجلى في بوابته الكبرى المزينة بالمقترضات، وقبته العالية ذات الرقبات المتتالية التي تبدو من الخارج. والمقرنصات المعقدة التي تزين الداخل، وربما كان هذا الشكل من القباب في ذلك العصر فريداً في العالم الإسلامي. يضاف إلى ذلك الألواح الرخامية المجزعة التي تزين الجدران والشمسيات المخرمة التي تجمل النوافذ، والزخارف الجصية القائمة على تحوير العناصر النباتية وتشابكها اللطيف.

قيمة هذا البيمارستان هامة من الناحية الفنية، لكون قيمتها الطبية تدل على المستوى العلمي والاجتماعي. مع الأسف لم يبق من المستشفيات القديمة في دمشق إلاّ هذا البناء مع أن ابن أبي أصيبعة والقفطي يحدثانا عن عدد الأطباء وعدد المستشفيات الكبير في دمشق وعن مدارس الطب التي دثرت ولم يبق منها شيء.

مدفن صلاح الدين:

يقع إلى شمالي الجامع الأموي باتجاه الغرب، وهو جزء من المدرسة العزيزية التي بناها الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين في منطقة الكلاسة. لقد درست المدرسة ولم يبق منها إلا العقد الكبير الذي مازال ماثلاً.

أما المدفن فهو صغير الحجم تعلوه قبة عالية، عني بترميمه سلاطين آل عثمان وجملوا نوافذه بالشمسيات الملونة وجدرانه بالألواح الخزفية.

كان صلاح الدين قد دفن في قلعة دمشق، ولما انتهى بناء المدفن، نقل رفاته إليه، وأحيط قبره بضريح خشبي مزين بزخارف هندسية متشابكة وكتابات قرآنية تدل على أسلوب العصر.

مازال هذا الضريح الأصيل معروضاً وقد أراد السلطان عبد الحميد الثاني أن يكرم البطل الذي وحد كلمة العرب والمسلمين في القرن ٦هـ/ ١٢م لمناجزة الصليبيين والتفوق عليهم، فأقام له ضريحاً جديداً من الرخام سنة ١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م.

المدرسة العادلية:

تقع في طريق باب البريد، وهي مقر مجمع اللغة العربية سابقاً. مظهرها الخارجي المبني بحجارة ضخمة يدل على الأبهة والبساطة في الوقت نفسه، لأن المدرسة بنيت أيضاً إبان الحروب الصليبية. زينت بوابتها العالية من الداخل بالمقرنصات، يتدلى من واجهتها العليا حجر ضخم يسمى في عرف البنائين (مفتاحاً)، وهو يميز هذا البناء لأنه نادر في الفن الإسلامي.

طرأ على واجهاتها الداخلية بعض التحوير وقد رممت عدة مرات، باحتها والمدفن وقاعة المحاضرات وقاعة الرئيس حافظت على بعض المظاهر القديمة. يعلو المدفن قبة عالية مزينة

بالمقرنصات. ودفن فيه بانيها الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب (٥٩٢ – ٦١٥هـ/ ١١٩٦ – ١٢١٨م).

المدرسة الظاهرية:

تقع تجاه المدرسة العادلية، وهي مقر المكتبة الظاهرية حالياً، كانت دار العقيقي وهي قصر السلاطين الأيوبيين، استملكها الملك السعيد بركة خان (٦٧٦ – ٦٧٨هـ/ ١٢٧٧ – ١٢٧٩م) ابن الملك الظاهر بيبرس البندقداري وعمرها مدرسة، وخصص فيها لأبيه الملك الظاهر.

شكلها الخارجي شبيه نوعاً بمظهر المدرسة العادلية. أهم ما فيها المدفن حيث خصص الآن لخزن المخطوطات، يتجلى فيه رقي الفن العربي الإسلامي في العهد المملوكي. كسيت الجدران من الأسفل بالرخام والرخام المجزع الملون، وكسي أعلى الجدران بالفسيفساء الزجاجية التي تمثل مناظر طبيعية جميلة ربما كانت انتحالاً لفسيفساء الجامع الأموي.

المدرسة الجقمقية:

تقع إلى شمالي الجامع الأموي وتؤلف الزاوية الشمالية الغربية من مدخل العمارة بناها الملك الظاهر سيف الدين جقمق المملوكي سنة ٨٢٤هـ/ ١٤٢١م، واجهاتها الخارجية بسيطة وأقل أبهة من المدرستين العادلية والظاهرية إلاّ أنها أكثر رشاقة. بوابتها جميلة جداً، تتميز بطاستها المحززة ومقرنصاتها الدقيقة وبالخيوط العربية المتشابكة المقفولة التي تحيط بلوح من الرخام المجزع. جدرانها مبنية من صفوف (مداميك) سوداء تتناوب مع صفوف زهراء، يتخللها في الوسط صف من حجارة بيضاء وسوداء متعرجة يوجد شريط من الكتابة يطوق واجهتي البناء.

مخططها الداخلي مؤلف من عتبة واطئة تتوسطها بركة ماء، الرواق يعلو عن العتبة ويحجزه عنها صف من الأعمدة جدران الرواق من الأسفل (وهو المصلى وقاعة الدرس) مزينة بالرخام المجزع وبالرخام المزين بزخارف منحوتة بارزة مذهبة، تتألف من عناصر نباتية محورة تعتبر من أجمل تراث الفن العربي الإسلامي في العهد المملوكي يعلوه شريط عريض من كتابة قرآنية رقمت بالخط النسخي وكسيت بقشرة ذهبية.

المحراب مثال صادق عن تقدم الفن ودقته وبراعة الفنانين، في أعلى كل نافذة لوحة حجرية مذهبة مكتوبة بالخطين الكوفي المشجر والثلث تعتبر مثالاً جيداً عن مستوى الخط العربي في القرن ٩هـ/ ١٥م.

يقع المدفن في الزاوية الشرقية الشمالية وفيه قبرا الملك الظاهر جقمق وأمه. الجدران أيضاً مزينة بما يشبه زينة المصلى.

كانت إحدى مدارس الحي الجامعي حول الجامع الأموي في القرن التاسع الهجري تهدمت هذه المدرسة بقنابل الفرنسيين عند انسحابهم سنة ١٩٤٥. عنيت المديرية العامة للآثار والمتاحف بإعادة إنشائها وترميم زخارفها، وإنها ستحدث فيها متحفاً يمثل

المدرسة العربية القديمة كما يمثل تطور الكتابة العربية والخط العربي خلال العصور.

قبل أن أترك الكلام عن العهدين الأيوبي والمملوكي، أحب أن الفت النظر إلى أن سورية التي قاومت طويلاً الاستعمار الصليبي، واستطاعت أخيراً أن تطرد الدخيل، وأن تسترد مكانتها بين البلاد العربية خاصة والأقطار الإسلامية عامة، قد وصلت في تطورها الفكري والاقتصادي والاجتماعي إلى درجة عالية في القرنين ٧ و ٨ هـ ١٣ و١٤م. لقد أنتجت سورية وعلى الأخص دمشق مصنوعات فاخرة من المنسوجات المتنوعة والخزف والزجاج المموه بالمينا والذهب والأسلحة المكفتة بالذهب والفضة والأواني النحاسية المنقوشة والمحلاة بالمعادن الثمينة، وأحياناً المرصعة بالأحجار الكريمة، والمخطوطات النفيسة المنمقة، يضاف إلى ذلك مهارة الحفر على الخشب وصياغة الحلي وصنع الدروع...

صار لسورية مركز تجاري ممتاز بين الشرق والغرب، وكانت البضائع الشرقية تمر في أراضيها إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط حيث تباع إلى التجار الأجانب. يضاف إلى ذلك مرور قوافل الحج من أراضيها وقد جنت سورية من هذا الموقع الممتاز ثروات عظيمة تجلت حركة العمران الواسعة وفي التقدم الحضاري، كما أنها احتكت مع سكان الشرق الأقصى وخاصة الصين فتأثرت بالفن الصيني وأثرت فيه: لقد أعجب الصينيون بالزجاج السوري فاشتروا منه كميات كبيرة ونقلوا معهم صناع الزجاج السوريين إلى بلادهم ليعلموهم صناعة الزجاج. أعجب السوريون بالخزف الصيني وأسلوبهم في الرسم فتأثروا به.

وبدت الزخارف في القرن ٨هـ - ١٤م أقرب إلى الطبيعة بعد أن كانت تميل إلى التجريد والتحوير في القرنين ٦ - ٧هـ، ١٢ - ١٣م.

بدأ التدهور في الرخاء الاقتصادي بعد طغيان التتر بقيادة تيمورلنك سنة ١٤٠٠م. الذي صادر معلمي الصناعات الهامة واصطحبهم معه إلى سمرقند.

ومما يجد الإشارة إليه في ذلك العهد تنظيم الأسواق والنقابات الصناعية، وإشراف الدولة على الصناعة لتحسين الإنتاج وحماية المستهلكين، بالرغم من سوء إدارة المماليك بأكثر الأحيان وخاصة في قضية جباية الضرائب. إن هذه التنظيمات في سورية كان لها الأثر البالغ في التنظيم الاقتصادي في أوروبة حيث تكونت النقابات الصناعية والشركات التجارية وصار لها كيان تقره الدولة.

بدأ العهد العثماني في سورية في سنة ١٥١٦م وقد كان الأوربيون استطاعوا قبل ذلك اكتشاف طريق الهند، وأخذت شرايين التجارة الشرقية المارة في سورية تجف بالتدريج، وأخذت الثروة العامة تتقهقر، وزاد على ذلك أن العثمانيين أعجبوا بالتفوق العمراني والاقتصادي في سورية وخاصة دمشق، فنقلوا معلمي الصناعات الكبرى إلى القسطنطينية، وهاجر كثير غيرهم من الصناع إلى مركز الثقل في الدولة. قامت حركات مناوئة ضد الحكم العثماني أخمدها الحكام بقسوة، ثم أخذت الخلافات تدب بين الولاة العثمانيين وأصحاب العصبيات، فكانت الحروب الداخلية تقوم بين يوم وآخر، يضاف إلى ذلك شراسة الفرق

العسكرية التي كانت ترسلها الدولة فكان بلاؤها عظيماً على الشعب. لذا أخذت البلاد تعيش في حال من الذعر وفقدان الأمن والعدالة، فانطوى الشعب على نفسه، وأخذ الناس يهتمون بالدفاع عن أنفسهم عاشوا في حارات ضيقة، جعلوا لها أبواباً حصينة، يغلقونها ليلاً خوفاً من العدوان، وكذلك كانت المحلات التجارية الهامة ضمن خانات حصينة. وكانت الحال منذ القرن ١٧ حتى الـ ١٩م تسير باستمرار من سيئ إلى أسوأ، فعم الجهل والفقر، وقل عدد النفوس كان القوي صاحب النفوذ التي تحميه عصبية، وعنده فرسان مسلحون يستطيع وحده أن يعيش لذا يلاحظ أن معظم المنفذين كانوا في الوقت نفسه كبار الملاك، وكان صغار الزراع والصناع مضطرين إلى الانضواء تحت حمايتهم ليكلفوا لأنفسهم الأمن ولقمة العيش.

يلاحظ من كل ذلك أن الاهتمام بالعمران قد تدنى في العهد العثماني تدنيا خطيراً وخاصة في المرافق العامة. أما الدور الخاصة فكان يعتني بها من الداخل ويجعل مظهر الخارج بسيطاً جداً يدل على الفقر حتى لا يطمع بهم أحد... امتد الحال كذلك إلى أن أتى الوالي المصلح مدحت باشا في آخر القرن التاسع عشر، فأنعش دمشق ببعض المشاريع العمرانية.

أذكر فيما يلي أمثلة قليلة عن الأبنية الأثرية التي خلفها الحكم العثماني ويلاحظ أنها جميعاً من مفتتح العهد أي في القرن ١٠هـ - ١٦م.

حيث لم يكن الحكم العثماني سيئاً بعد. أما قصر العظم في دمشق فهو مثل صادق عن تحكم والي دمشق أسعد باشا واستبداده بأموال الشعب من أجل بناء هذا القصر.

تكية السلطان سليمان:

كان في موضع هذه التكية القصر الأبلق الذي بناه الملك الظاهر بيبرس خارج دمشق، دمره المغول في هجومهم تحت قيادة تيمورلنك. أحب السلطان سليمان أن يقيم بدلا عنه ملجأ للفقراء وأبناء السبيل، فعمر التكية مستفيداً من أنقاض البناء القديم، فأتى عمله جميلاً لأن البناء وفق بين الفن العربي والفن العثماني المتأثر بالفن البيزنطي الاستانبولي. يلاحظ في البناء أحداثات لطيفة بشكل القبة ورقبتها ورشاقة المئذنتين وتعدد القباب في السطوح واتساق الأروقة حول الباحة.

وعمر السلطان سليمان أيضاً إلى شرقي التكية مدرسة حسب الأسلوب العربي الدمشقي.

تتميز هذه المدرسة بالألواح الخزفية الدمشقية النفيسة وبالنوافذ الجصية المخرمة.

أصبحت هذه التكية مقراً لمتحف دمشق الحربي منذ سنة ١٩٥٩م.

جامع السنانية:

يقع في أول طريق الميدان، بدأ بعمارته سنان باشا سنة ٩٩٥هـ - ١٥٨٦م. وهو في الواقع جامع جميل بأروقته وعقوده الداخلية ومنبره ومحرابه وألواح الرخام المجزع والألواح الخزفية الدمشقية. يتميز هذا الجامع عن جميع جوامع دمشق بمئذنته الرشيقة المكسوة بالخزف الزنجاري.

جامع الدرويشية:

بناه درويش باشا والي دمشق سنة ٩٨٢هـ ١٥٧٤م وهو لا يقل جمالاً عن جامع سنان باشا لكنه يمتاز بالألواح الخزفية الدمشقية التي لا تزال بحالة جيدة وقد تنوعت مواضعها وألوانها وتعتبر بحق من أنفس الآثار الدمشقية في العهد العثماني.

قصر العظم:

يقع بين سوق البزورية والجامع الأموي وقد كان في مكانه قصر من العهد المملوكي وجد من آثاره المملوكية فسقية جميلة من الفسيفساء الزجاجية نقلت إلى متحف دمشق. بناه والي دمشق الوزير أسعد باشا العظم سنة ١١٦٣هـ - ١٧٥٠م.

يمثل قصر العظم الدار الدمشقية العريقة سواء أكان في مخططها، أم تشييد واجهاتها وأروقتها وأواوينها وزخرفتها الداخلية ومرافقها المريحة.

يتألف القصر من أربعة أقسام رئيسية: قسم الضيوف (وكان يسمى السلاملك) قسم الحريم (وكان يسمى الحرملك)، قسم الخدم وفيه المطبخ وبيوت المؤونة، الإصطبل الذي كان له باب يؤدي إلى خارج القصر مباشرة.

أهم الأقسام هو الحرملك، تتوسطه باحة واسعة جداً فيها البرك والفساقي وأحواض الزرائع. تقع القاعة الرئيسية في وسط الجهة الجنوبية من الباحة وهي ذات ثلاثة طرزات وعتبة وغرفتين ثانويتين. جدرانها مزينة بالحجر المنقوش والرخام المجزع وألواح الخزف. كان السقف مكسوا بالخشب المزين بالزخارف الملونة والمذهبة.

جميع غرف القصر جدرانها وأسقفها مكسوة بحلقات خشبية مزينة بزخارف نباتية وكتابية مجملة بالألوان والذهب، وفي عتباتها فساق من الرخام المجزع الجميل.

الواجهات الخارجية مزينة بخيوط عربية محفورة ولوحات من الرخام المجزع وبزخارف هندسية جصية ملونة منزلة بالحُجر (تعرف عند البناءين بالأبلق).

يعتبر قصر العظم بحق من أروع أبنية دمشق وأجملها في العهد العثماني. لقد اتخذ منذ سنة ١٩٥٣ مقراً لمتحف التقاليد الشعبية والصناعات اليدوية.

من آثار دمشق الهامة الخانات التي كانت أسواقاً داخلية تقفل في المساء للمحافظة على المال بسبب حركات العصيان والعدوان. يوجد خانات قديمة في البزورية والسوق الطويل والخياطين وسوق الحرير. أهمها الذي لا يزال بحالة جيدة خان أسعد باشا. وهو يقع في وسط سوق البزورية أنشأه أسعد باشا سنة ١١٦٦هـ - ١٧٥٢م. بوابته هامة جداً وكذلك عقوده الداخلية التي كانت تحمل قباباً عظيمة.

من آثار دمشق أيضاً الحمامات العامة، زال معظمها من الوجود، وما بقي منها حول أكثره إلى مخازن تجارية كحمام الخياطين مثلاً، فقد كان من أجمل وأكبر حمامات دمشق.

المتحف الوطني بدمشق:

كان مقره سابقاً المدرسة العادلية في باب البريد ملحقاً بالمجمع العلمي العربي، وقد أحدثت المؤسستان على اثر إعلان استقلال سورية عن الدولة العثمانية. أنشئ المتحف الحالي سنة ١٩٣٦ وجعل مخططه قابلاً

للتوسع. وقد توسع فعلاً على خطوات في السنين التالية: ١٩٥٠، ١٩٥٤، ١٩٦٢. وأصبح مؤلفاً من أربعة فروع مصنفة حسب التسلسل التاريخي:

١- فرع الآثار السورية من العهود الشرقية القديمة.

٢- فرع الآثار السورية من العهود اليونانية الرومانية والبزنطية.

٣- فرع الآثار العربية الإسلامية

٤- فرع الفن الحديث.

الفرع الأول:

يضم الآثار المكتشفة في تل حريري (ماري) ورأس الشمرة (اوغاريت)، وتل الخويرة، وتل الكزل، وعمريت وتل سوكاس... هذه الآثار تعود إلى ما بين الألف الثالث والقرن الرابع قبل الميلاد (أي حتى فتوح الاسكندر). وهي تعبر عن تاريخ وحضارة الشعب السوري العربي في تلك الفترة، وتفصح عن ذوق وإبداع. أن أهم ما يظهر هذا الإبداع اكتشاف الشعب السوري للكتابة بالحروف الصوتية الأبجدية في رأس الشمرة وقد اكتشف في تل الخويرة سميمات من الباتر تعتبر سابقة لفن نحت التماثيل التي وجدت في جنوبي بلاد الرافدين وماري، كما وجد فيها دمى من الطين المشوي تمثل عربات ذات دواليب (يعني أن الدولاب استعمل في سورية منذ القديم)

الفرع الثاني:

تعود الآثار المحفوظة فيه إلى ما بين القرن الرابع قبل الميلاد حتى أوائل القرن السابع بعد الميلاد اكتشفت هذه الآثار في تدمر وحوران وجبل العرب وحمص وحماة ودورا اوروبوس.. وأعيد فيه إنشاء قصر الحير الغربي من العهد الأموي التدمري. عرضت فيه نماذج عن الزجاج والفخار والخزف والبرونز والتماثيل الحجرية والفسيفساء والرسوم الجدارية والحلي والنقود والمخطوطات والمنسوجات.

الفرع الثالث:

حفظت فيه الآثار العربية الإسلامية منذ فجر الفتح حتى أواخر العهد العثماني وقد أعيد فيه إنشاء قصر الحير الغربي من العهد الأموي والقاعة الشامية من القرن ١٢هـ - ١٨م.

مثلت فيه مظاهر الحضارة العربية ووثائقها التاريخية: النقود، الأسلحة، الآثار المعدنية والخشبية والفخارية والخزفية والحجرية والزجاجية والمخطوطات والأدوات الفلكية...

الفرع الرابع:

ليس في الواقع لسورية باع طويل في الفن الحديث، وإنما بدأت تباشيره في آخر الربع الأول من هذا القرن، وكان الرائد الأول الفنان توفيق طارق. شجعت المديرية العامة للآثار والمتحف ثم وزارة الثقافة والإرشاد القومي بعد أحداثها الفنانين وخاصة الناشئين منهم، واقتنت باستمرار من خلال المعارض المقامة اللوحات التي تمثل نهضة الفن الحديث بمختلف اتجاهاته الفنية فحصل لديها عدد كبير من اللوحات كان مادة هذا الفرع الناشئ.

عرضت اللوحات مصنفة حسب المدارس الفنية: الاتباعية، الانطباعية، التعبيرية، الزخرفية، التكعيبية، التجريدية...




يا ليل..

شعر: مدحة عكاش

أنـا رغـمَ غضبـةِ دهـري المحتـاحِ
يـا ليـل، مـا سمـعَ الزمـان نـواحي

وهزئـتُ بالشَّكوى وكيـف أُعيرُهـا
طـرفي؟ ودُنيـا الحـبّ تمـلأ سـاحي

يـا ليـلُ!! نـامَ بـكَ الخلـيُّ ومُقلتي
يقظـى، تجـول بنجمِـك اللمـاحِ

وبَعـدْتُ فيـكَ عـن الحَيـاةِ وأهْلِهـا
مـن عاشـقٍ صـبٍّ ومـن ملتـاحِ

يـا ليـلُ! أيـنَ رُؤى الجمـالِ؟ فلَيْـسَ لي
إلا الجمـال يطيـب فيـه صـداحي

أذكيـتُ إحساسـي بـه ومَشَـاعِري
وجعلـتُ فيـهِ صبابتـي ومراحـي

دنيـاهُ زورقـي الحبيـبُ يطـوفُ بـي
عبـر النجـومِ، وصبـوتي ملاحـي

* * *

أنـا والجمـالُ، وأنـتَ تعلـمُ غُـدْوَتي
يـا ليـلُ في سـرحاتِهِ ورواحـي

إلفـانِ، أمنحُـهُ الـودادَ فينـثني
يَمـلأ لـي الأفـراح في أقـداحي

أشـتاقُهُ، فـأراهُ بيـنَ جـوانحي
في مقلتـي في قلبـي المِمـراحِ

عنـدَ الحِسـانِ، وفي تَثَنّـي عطفهـا
مـن كـلِّ لاعبـةٍ وكـلِّ رداحِ

في بسـمة الطفـلِ البـريءِ ولَهْـوِهِ
في الـوردِ، في الإمسـاءِ والإصبـاحِ

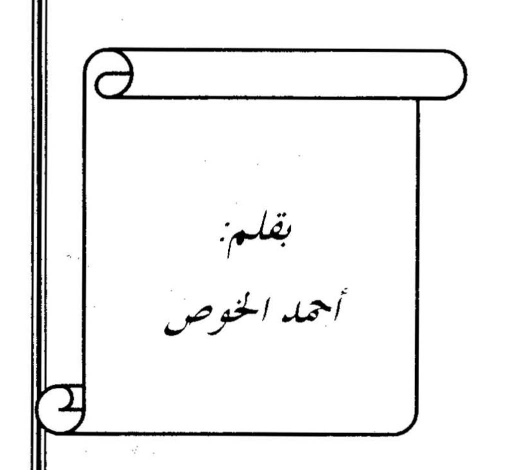
وأراهُ في الشـفةِ الكريمـةِ والـلمـى
وبكـلِّ وجـهٍ مشـرقٍ وضّـاحِ

أطبقـتُ أجفـاني عليـهِ منعَّمـا
وبعـدْتُ عـن شَـجَني وعـن أتراحـي




«فلسطين»

نزار قباني



ألم تتطور الأفكار وتتغير المفاهيم وتتبدل العادات والتقاليد في هذا القرن الذي نعيش فيه؟ في عصر الطائرات والصواريخ والأقمار الصناعية وعصر الثورة المعلوماتية في النظم والقوانين والحواسيب التي قلبت الدنيا رأساً على عقب؟ فلماذا نقول عن هذا العصر: إنه عصر استغلال للشعوب وابتزاز للخيرات واشمئزازٍ من الكبار الذين تسلطوا على الموارد الأرضية والبشرية في كل مكان؟

وإذا كنت لا تصدق فانظر إلى ما فعله الصهاينة في أرض فلسطين مهبط الديانات ومصدر الوحي والإلهام، زاعمين أن المسجد الأقصى بني على أنقاض هيكل سليمان، فلهذا عندما زار وزير الدفاع الإسرائيلي السابق موشي دايان، المسجد الأقصى، وقف على بابه، وقال: «لقد كان حلماً أن نصل إليك» وفي اعتقاده أنه هيكل سليمان.

وما أروع عود الزيتون الذي حمله عمر بن الخطاب ﷺ في زيارته التاريخية إلى القدس!! وفي عقله الآية الكريمة التي تقول: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. لذلك منع المسلمين من الصلاة في كنيسة القيامة لئلا يتخذها المسلمون مسجداً من بعده، وعاشت فلسطين في رحاب الإسلام العظيم وفيها المسيحيون والمسلمون خلال ثلاثة عشر قرناً لم يعكر صفو هؤلاء إلا الفرنجة الذين سمّوا أنفسهم بالصليبيين وسمّوا حملاتهم بالحملات الصليبية.

وفي العصر الحديث اغتصب الصهاينة فلسطين، مما هزَّ مضاجع العرب والمسلمين، فكتب الأدباء نثرهم والشعراء شعرهم، يتحدثون عن هذا المصاب الجلل.

أما الشاعر نزار قباني فقد أحس بالمصاب لأنه شاعر المرأة كما يقولون، وكانت

درجة الشفافية عنده أكثر من غيره، فأخذت المأساة عمقاً أكبر عندما خاطب الإسرائيليين قائلاً في قصيدته «منشورات فدائية على جدران إسرائيل»:

يا آلَ إسرائيلَ، لا يأْخُذْكمُ الغُرُورْ
عقاربُ الساعة إن توَقَّفتْ
لا بُدَّ أن تَدُورْ..
إنَّ اغتصابَ الأرضِ لا يخيفنا
فالريشُ قد يسقطُ من أجنحة النُسُورْ
والعَطَشُ الطويلُ لا يُخيفُنَا
فالماءُ يبقى دائماً في باطن الصُخُورْ
هزمتُمُ الجيوشَ.. إلاَّ أنَّكمْ لم تهزموا الشعُورْ
قطعتُمُ الأشجارَ من رؤوسِهَا
وظلَّتِ الجُذُورْ..

ويصوِّر نزار قباني القضية الفلسطينية فيقول:

«القضية الفلسطينية هي بعض القضايا العربية.
وفلسطين جغرافياً وبشرياً وسيكولوجياً تحمل نفس التراكيب ونفس العناصر التي يتألف منها أي بلد عربي.
وبالتالي فهي ليست نغمة استثنائية في الإيقاع العربي العام ولا هي «استوكهولم» في صحراء الجنس العربية.
أنا لا أزعم أن خروج الفلسطينيين من فلسطين كان بسبب العرض فحسب. هذا تصغير ميكروسكوبي للمشكلة وعزلها عن عشرات المسببات الأخرى.
لكنني أتصور أن عامل «الليبيدو» بالإضافة إلى عوامل الإبادة الجماعية وعدوى الذعر والهيستيريا التي تملكت الفلسطينيين وتصديقهم للشعار الترانزيستوري المعروف «إننا عائدون» وعدم وجود تنظيم ثوري حقيقي، ورؤيا واضحة لطبيعة الغزوة الصهيونية، كل هذه العوامل مجتمعة دفعت الفلسطينيين كالمجانين إلى خارج حدود فلسطين»

ويتساءل نزار بحسرة كيف تجمَّع هؤلاء اليهود من شتى أنحاء الأرض، من أوروبا وآسيا وإفريقيا ومن أميركا وأوستراليا؟ وكانوا خليطاً من سُقاطة الشعوب؟ كيف جاؤوا إلى وطننا الجميل المسالم فدنسوا التراب وأعدموا النساء، ويتموا الأطفال. فيقول في قصيدته «قصة راشيل»:

... وأبْحَرَتْ من شرق أوروبا
مع الصباحْ...
سفينةٌ تلعنُها الرياحْ
وجْهَتُها الجنوبْ
تغصُّ بالجرذان، والطاعونِ، واليهودْ
كانوا خليطاً من سُقاطة الشعوبْ
من أرض بولندا،
من النمسا..
من استنبولَ،
من براغْ..
من آخر الأرضِ، من السعيرْ
جاؤوا إلى موطنِنا الصغيرْ
موطننا المُسَالِمِ الصغيرْ
فلطَّخَوا ترابَنَا
وأعدموا نساءَنا
ويتَّموا أطفالَنا
ولا تزالُ الأُمَمُ المتَّحدهْ
ولم يزل ميثاقُها الخطيرْ
يبحثُ في حريّة الشعوبْ

وحقِّ تقرير المصيرْ
والمُثُلِ المُجَرَّدَهْ

وفي مقابل هذه الجريمة النكراء حيث اغتصب الصهاينة فلسطين، ومكنتهم الأمم المتحدة والدولتان الكبيرتان في ذلك الوقت أميركا والاتحاد السوفياتي من زرع هذا الكيان في جسم الأمة العربية، وإذا كان العرب في غفلة من هذا الأمر، فلينتظروهم فإنهم قادمون، يقول نزار مشيراً إلى ذلك في قصيدته «منشورات فدائية على جدران إسرائيل»:

تسعُونَ مليوناً من الأعرابِ..
خَلفَ الأُفْقِ غاضبُونْ
يا ويْلَكُمْ من ثأْرِهِمْ
يومَ من القُمْقُمِ يطْلعُونْ..

وليست بداية التحرير ببعيدة فقد بدأ الفلسطيني يأخذ دوره في معركة التحرير، تحرير الإنسان من القلق والخوف والتردّد، وتحرير الأرض من الصهاينة التي دنسوها ومن الأفكار التي سمَّموها، ومن الأكاذيب التي اختلقوها، هذا الفلسطيني بدأ يعيد الحساب منذ أول عملية فدائية قام بها الفلسطيني الصغير «رياض جابر» الذي فجَّر فندق «الأمبسادور» في القدس وحتى بداية تحرير غزة من الصهاينة، يقول نزار قباني في القصيدة نفسها:

ظلَّ الفلسطينيُّ أعواماً على الأبوابْ
يشحذُ خبزَ العدل من موائد الذئابْ
ويشتكي عذابَهُ للخالقِ التوَّابْ
وعندما..
أخْرَجَ من إسطبله حصانَهُ
وزيّتَ البارودةَ المُلْقاةَ في السردابْ
أصبحَ في مقدوره
أن يبدأَ الحِسَابْ..

أما من أبعدته النكبة عن أرضه، من فلسطينه، أراد أن يرجع إليها ليحررها ممن اغتصبوها ودنسوا مقدساتها وانتهكوا حرماتها، فقد أصبح هذا الفلسطيني هو نفسه القضية والبندقية معاً، فيقول نزار في قصيدته «طريق واحد»:

أصبحَ عندي الآنَ بُنْدُقيَّهْ
إلى فلسطينَ خذوني مَعَكم، يا أيُّها الرجال
أرُيدُ أن أعيشَ أو أموتَ كالرجالْ
أُريدُ أن أنبتَ في ترابِها.. زيتونةً أو حَقْلَ برتُقَالْ
أو زهْرَةً شَذيَّهْ..
قُولوا لمن يسأل عن قضيّتي..
بارُودتي.. صارتْ هي القضيَّهْ..

وما حدث قبل النكبة الفلسطينية وبعدها عجيب بعجيب بعجيب!!؟ كيف تآمرت الدول الكبرى على هذه الأرض؟ كيف أعطى بلفور وعده المشؤوم لهؤلاء الصهاينة المشتتين في أنحاء العالم؟ كيف كان السكوت العربي المريب تجاه هذه القضية؟ وكيف أقيمت أوّل دولة عنصرية دينية بالقوة مرة وبالطغيان مرة أخرى، وفي هذه الحيرة من الأمر، خاطب نزار قباني جيل المستقبل «الأطفال» بعيداً عن كل ما يدور حول هذه القضية في قصيدة «قصة راشيل»:

فليَذْكُرِ الصغَارْ..
العربُ الصغَارْ حيث يُوجَدونْ

مَنْ وُلدوا منهُمْ، ومَنْ (سَيولَدُونْ)
قصّةَ إرهابيّة مجنّدَهْ
يدعُونَها (راشَيل)
حلَّتْ محلَّ أُمِّي الممدَّدَهْ
في أرض بيَّارتنا الخضراء في الجليلْ
أُمّي أنا الذبيحةُ المُستَشهَدهْ..
وليذْكُر الصغارْ..
حكايةَ الأرض التي ضيَّعَها الكبارْ..
والأُمَمُ المتّحده..

ويتحدث الشاعر نزار قباني عن «النكسة» وما أصاب العرب من ويلات وما أحدثت من أرزاء في الأرض.. في النفوس.. في الأموال.. في الكبار.. وفي الصغار.. في كل شيء، لذلك تغيرت لغة نزار بعد أن تحوّل من شاعر حب وحنين إلى شاعر يكتب بالسكين حيث يقول في قصيدة «هوامش على دفتر النكسة»:

أَنْعي لكُمْ، يا أصدقائي، اللّغَةَ القديمَهْ
والكتُبَ القديمَهْ
أَنْعي لكُمْ:
كلامَنَا المثْقُوبَ كالأحذية القديمَهْ
ومُفْردات العُهْرِ، والهجاءِ، والشتيمَهْ..
أَنْعي لكُمْ..
أنعي لكُمْ..
نهايةَ الفِكْرِ الذي قادَ إلى الهزيمَهْ

ونتيجة طبيعية لهذه اللغة التي أفقدوها الحياء لأنهم هم فاقدوه، أطلت علينا النكسة بوجهها الكئيب.. القلوب واجمة والنفوس قلقة مترددة، والعقول مشتتة، فخسارتنا للحرب شيء طبيعي ولا غرابة فيه، يقول نزار في القصيدة نفسها:

إذا خسرْنا الحربَ، لا غَرَابَهْ
لأنَّنا ندخُلُها
بكلِّ ما يملكهُ الشَرْقيُّ من مواهب الخطَابَهْ
بالعَنْتريَّاتَ التي ما قَتلَتْ ذُبابَهْ
لأنَّنا ندخُلُهَا
بمنطق الطَبْلَة والرَبَابَهْ..
السرُّ في مأسَاتنا
صراخُنا أضْخَمُ من أصواتنا
(أسمع جعجعة ولا أرى طَحناً)
وسيفنا..
أطْوَلُ من قَامَاتنا
خُلاصَةُ القضيَّهْ
تُوجَزُ في عبارَهْ
لقد لبسْنَا قشْرَةَ الحضارَهْ
والروحُ جاهليَّهْ..
بالناي والمزْمارْ
لا يحدثُ انتصارْ...

إنها مسرحية المأساة والملهاة التي ابتاعت فلسطين لليهود بموافقة من الأمم المتحدة، وبريطانيا والولايات المتحدة ومن الاتحاد السوفياتي الذي كان في تلك الفترة يشن على الدين حرباً شعواء، لكنه عندما قامت إسرائيل على أساس ديني وافق على تأسيسها، ولم تقف هذه المسرحية عند هذا الحد، بل كل الحكام العرب ممثلون أكفّاء لتمرير هذه الجريمة النكراء. قال نزار يطالبهم بالرحيل في قصيدة «الممثلون»:

متى سترحلونْ؟
المسرحُ انهارَ على رؤوسكُمْ
متى سترحلونْ؟
والناسُ في القاعة يشتمونَ.. يبصقُونْ..
كانت فلسطينُ لكمْ

دجاجةً، من بَيْضها الثمين تأكُلُونْ..
كانت فلسطينُ لكمْ
قميصَ عثمانَ الذي به تتاجرونْ
طُوبَى لكُمْ..
على يديْكُمْ أصبحتْ حدودُنا
من وَرَق..
فألفُ تشْكُرونْ..
على يديْكُمْ أصبحتْ بلادُنا
إمرأةً مُباحةً..
فألفُ تُشْكَرونْ..

ويستمر نزار في هذه القصيدة شارحاً أوضاع الأمة العربية بعد النكسة: كسلٌ، خمولٌ، تردٍّ حياةٌ تسير على أسوأ ما يكون، فيقول:

حربُ حَزِيْرَانَ انتَهَتْ..
فكلُ حربٍ بعدَها، ونحنُ طيِّبُونْ..
أخبارُنا جَيِّدةٌ
وحالُنا – والحمدُ لله – على أحسنِ ما يكونْ..
جَمْرُ النراجيل.. علَى أحسنِ ما يكونْ
وطاولاتُ الزَهْر – مازالت –
على أحسنِ ما يكونْ
وصوتُ فيروزَ،
من الفردوسِ يأتي،
(نحنُ راجِعُونْ)..
تَغَلْغَلَ اليهودُ في ثيابنا
و (نحنُ راجِعُونْ)..
صاروا على مترَيْنِ من أبوابنا
و (نحنُ راجعُون)..
ناموا على فَراشنا..
و (نحنُ راجعونْ)..
وكل ما نملكُ أن نقولَهُ
(إنّا إلى اللهِ لراجِعُونْ)..

والقدس أقدس الأقداس في العالَمَيْن القديم والحديث وفي الديانات السماوية الثلاث اليهودية والمسيحية والإسلامية حيث كرّم الله هذه المدينة عندما أسرى بعبده محمد ﷺ إليها، وقد صلى إماماً بالأنبياء جميعاً، وقال الله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ [الإسراء: ١].

وقد استباح اليهود القدس واعتدوا على مقدساتها، فما كان من نزار قباني إلاّ أن بكى على مدينة الأنبياء ومنارة الشرائع فقال في قصيدته «القدس»:

بَكَيْتُ.. حتّى انتهت الدُمُوعْ
صلّيْتُ.. حتى ذابتَ الشُمُوعْ
ركعتُ.. حتى ملّني الرُكوعْ
سألتُ عن مُحَمَّد..
فيك، وعن يَسُوعْ..
يا قُدْسُ. يا مدينةً تفوحُ أنبياءْ
يا أقْصَرَ الدُرُوبِ بين الأرضِ والسماءْ
يا قُدْسُ.. يا منارَةَ الشرائعْ
يا طفلةً جميلةً مَحْرُوقَةَ الأصابعْ
حزينةٌ عيناك يا مدينةَ البَتُولْ
يا واحةً ظليلةً مرَّ بها الرَسُولْ
حزينةٌ حجارةُ الشوارعْ
حزينةٌ مآذنُ الجوامعْ
يا قدسُ.. يا مدينةً تلتفُّ بالسَوَادْ
منْ يقرعُ الأجراسَ في كنيسةِ القيامَهْ؟
صبيحةَ الآحادْ..
من يحملُ الألعابَ للأولادْ؟
في ليلةِ الميلادْ..

ثم جاء العمل الفدائي نتيجة طبيعية لما حلّ بالأمة العربية من تدمير وتقتيل وتشريد،

ولا سيما للشعب العربي في فلسطين، حيث ظنه الصهاينة لقمة سائغة في أفواههم أو دمية يتقاذفونها فيما بينهم، يقول نزار قباني محذراً الصهاينة ومذكرهم بأنْ لا موسى في هذا العصر، فيقول في قصيدته «منشورات فدائية على جدران إسرائيل»:

لأنَّ موسَى قُطعَتْ يَدَاهْ
ولم يَعُدْ يُتْقِنُ فَنَّ السِّحرْ
لأنَّ مُوسَى كُسِرَتْ عَصَاهْ
ولم يَعُدْ بوسعه
شَقِّ مياه البَحْرَ
لأنَّكُمْ لستُمْ كأمْريكَا
ولسنا كالهُنُود الحُمْرْ
فسوفَ تهلكونَ عن آخرِكُمْ
فوقَ صحارى مِصْرْ..

ولم يكتف نزار بإبطال سحرهم بل أنذرهم بأن المسجد الأقصى الذي أحرقوه شهيد جديد يضاف إلى قائمة الشهداء الذين بذلوا دماءهم وأنفسهم رخيصة من أجل تراب وطنهم، ومن أجل مبادئهم التي بقيت عرائس من شمع حتى إذا ضحوا من أجلها انتشرت في شعبهم لتقود المعركة ضدَّ العدو، يقول نزار في القصيدة نفسها:

المسْجدُ الأقْصَى، شهيدٌ جديدْ
نُضيفُهُ إلى الحساب العتيقْ
وليست النار، وليسَ الحريقْ
سوى قَناديلَ تُضِيءُ الطريقْ

والسؤال الذي حيّر الجميع، كيف يستطيع الفلسطينيون الردّ على الصهاينة الذين أقاموا دولتهم على العلم والتكنولوجيا، ولديهم مئتا رأس نووي، والأسلاك المكهربة في كل أنحاء فلسطين؟ ومع ذلك فقد خرج إليهم الفدائيون، يقول نزار في القصيدة نفسها:

منْ قَصَبِ الغَابَاتْ
نَخرجُ كالجنِّ لكُمْ
منْ قَصَبِ الغاباتْ
منْ رُزَم البريد، من مقاعد الباصَاتْ
من عُلَب الدخان، من صفائح البنزينِ،
من شواهد الأمواتْ
من الطباشير.. من الألواح.. من ضفائر البنَاتْ..
من خَشَبِ الصُلْبَانِ.. من أوْعية البخورِ..
من أغطية الصلاةْ..
منْ ورَقِ المُصْحَفِ، نأتيكُمْ
منَ السُطُور والآياتْ
لَنْ تُفْلتُوا من يدنا..
فنحنُ مبثوثُونَ في الريح.. وفي الماء.. وفي النبَاتْ
ونحنُ معجونونَ بالألوان والأصواتْ
لَنْ تُفْلَتُوا..
لَنْ تُفْلَتُوا..
فكُلُّ بيتٍ فيه بُنْدُقيَّةٌ
من ضفَّةِ النيلِ إلى الفُراتْ..

والعمل الفدائي الذي قام بعد النكسة هو اللغة الوحيدة التي يفهمها العدو، فلا الشعر ينفع، ولا الخطابة تروي، وقد أدرك هذه الحقيقة شاعرنا الكبير نزار عندما قال في قصيدته «إفادة في محكمة الشعر»:

الفِدائيُّ وحْدَهُ.. يكتُبُ الشِّعْرَ
وكُلُّ الذي كتبْنا هُرَاءُ..

إنّــــهُ الكاتـــبُ الحقيقـــيُّ للعصــــرِ
ونحــــنُ الحُجّـــابُ والأجَـــراءُ

عنــــدما تبـــدأُ البنــادقُ بـــالعَزْفِ
تمـــوتُ القصـــائدُ العَصْـــماءُ..

* * *

مـــا لنَـــا.. مـــا لنَـــا.. نلـــومُ حَزيْـــرانَ
وفـــي الإثـــمْ كلّنـــا شُــرَكاءُ

البُطُـــولاتُ موقِـــفٌ مَسْـــرحيٌّ
ووجـــوهُ المُمثّلـــينَ طِـــلاءُ

وفلســـطينُ بيـــنهُمْ كمَـــزادٍ
كـــلُّ شـــارٍ يزيـــدُ حـــينَ يَشـــاءُ

لو قرأنَا التــاريخَ.. مـــا ضـــاعت القُــدْسُ
وضـــاعتْ مـــنْ قبلهـــا (الحَمْـــراءُ)...

* * *

يـــا فلســـطينُ.. لا تـــزالينَ عَطْشَـــى..
وعلـــى النـــفطِ نامـــت الصَـــحْراءُ

يـــا فلســـطينُ لا تُنـــادِي علـــيهِمْ
قـــد تســـاوى الأمـــواتُ والأحيـــاءُ

يـــا فلســـطينُ.. لا تُنـــادي قُريْشَـــاً
فقـــريْشُ ماتـــتْ بهـــا الخُـــيَلاءُ

ولقد انتصر العرب على الكيان الصهيوني في حرب تشرين التحريرية التي فتحت جبهتيها السورية والمصرية، وأنزلت بالعدو هزيمة نكراء، وقد دخل البترول المعركة لأول مرّة في هذه الحرب المقدسة التي أظهرت ضعف الصهاينة عندما توحد العرب، فدخل أرض سورية الجندي العربي من المغرب إلى العراق مشاركين إخوتهم السوريين في معركة المصير التي كادت أن تقلب موازين القوى في الوطن العربي لولا التدخل الأميركي الكبير والسريع لصالح العدو الصهيوني. ومع ذلك كانت الفرحة وكان النصر للأمة العربية، وفرح العرب بحرب رمضان التي سموها حرب تشرين، يقول نزار في قصيدته «ترصيع بالذهب على سيف دمشقيّ»:

صَـــدَقَ الســـيفُ وَعْـــدَهُ يـــا بـــلادي
فالسياســـــاتُ كلهـــا أَفْيُـــونُ

نحـــنُ عكـــا.. ونحـــنُ كرمـــلُ حيفـــا..
وجبـــالُ الجليـــلِ.. واللطـــرونُ

كـــلُ ليمونـــةٍ ســـتنجبُ طفـــلاً
ومحـــالٌ أن ينتهـــي الليمـــونُ

وبعد انتصارات العرب في تشرين التحرير، ولتغطي إسرائيل وجهها المهزوم اتفقت مع أنور السادات في «كامب – ديفيد» على الاعتراف بها مقابل سيناء، فضمنت السلام مع مصر، وخلقت الخلافات بين الدول العربية، كذلك قصمت ظهر العراق حين جرته إلى حرب طويلة مع إيران، وأشعلت فتيل الحرب الأهلية الثانية في لبنان، لأن المقاومة الفلسطينية كانت تشن الهجمات الفدائية داخل العمق الصهيوني من جنوب لبنان، وإن مذبحة صبرا وشاتيلا شاهدٌ حيٌّ على همجية ودموية الصهاينة، فأُجبر ياسر عرفات على نقل قيادة منظمة التحرير الفلسطينية إلى تونس، وهكذا هُيئت الأجواء لتوقيع اتفاقية «أوسلو» تعترف المنظمَة بموجبها بقيام دولة إسرائيل مقابل غزة وأريحا وبعض المدن المتفرقة في الضفة الغربية كدولة فلسطينية. يقول نزار قباني في قصيدته «المهرولون»:

من تُرى يسألُهُمْ عن سلامِ الجُبناءْ؟
لا سلامِ الأقوياء القادرينْ
من تُرىَ يسألُهُمْ عن سلام البيع بالتقسيطِ..
والتأجيرِ بالتقسيط.. والصفقاتِ..
والتجارِ.. والمستثمرينْ؟

من تُرى يسألُهُمْ عن سلامِ الميتينْ؟
أسكتوا الشارعَ.. واغتالوا جميعَ الأسئلهْ
وجميعَ السائلينْ...

* * *

.. وتزوجنا بلا حبٍّ..
من الأنثى التي ذات يومٍ أكلَتْ أولادَنا..
لم يكنْ في العرسِ رقصٌ عربيٌّ
أو طعامٌ عربيٌّ
أو غناءٌ عربيٌّ
أو حياءٌ عربي
فلقدْ غابَ عن الزَّفَّةِ أولادُ البلدْ..

* * *

كانَ نصفُ المَهرِ بالدُّولار..
كانَ الخاتمُ الماسيُّ بالدولار..
كانت أجرَةُ المأذونِ بالدولار..
والكعكةُ كانت هبَةً من أمَريكَا..
وغطاءُ العُرسِ، والأزهارُ، والشمْعُ، وموسيقى المارينْز..
كلُّها قد صنعتْ في أمريكا!!

ولقد سبقت هذه الاتفاقيات المشؤومة ثورةٌ قادها الأطفال وكان سلاحهم الحجارة والزجاجات الحارقة، لكن العقاب الصهيوني كان أشد بطشاً ووحشية، فقد أمر رئيس الوزراء السابق شمعون بيريز بكسرِ عظام اليدين والرجلين لكل طفل يحمل حجراً، حجته في ذلك أن جبر الكسور يأخذ وقتاً يرتاح به العدو الصهيوني من شغب الأطفال وحجارتهم، ومع ذلك يرى الشاعر نزار قباني أن الأمل معقود على هؤلاء الأطفال الذين قرروا تحرير فلسطين. فيقول في قصيدته «أطفال الحجارة»:

آه.. يا جيلَ الخياناتِ..
ويَا جيلِ العمُولاتِ..
ويا جيلَ النفاياتِ..
ويا جِيلَ الدعارَةْ..
سوفَ يجتاحُكَ - مهما أبطأ التاريخُ -
أطفالُ الحجارَةْ..

بعد ذلك وفي هذه المساحة الصغيرة من فلسطين حاولت منظمة التحرير الفلسطينية إقامة سلطة لها، فجندت الشباب وانتشر السلاح وبدأت الفصائل الفلسطينية المختلفة تنشئ لها أذرعاً عسكرية تنتظر ساعة الصفر، وقد توج الفلسطينيون جهودهم بانتفاضة إثر زيارة شارون لباحة المسجد الأقصى أقضّت مضاجع بني صهيون وأثارت فيهم وحشية الانتقام.

يقول نزار في قصيدته «الغاضبون»:

يا تلاميذَ غزَّة.. لا تعودوا لكتاباتنا ولا تقرؤونا

نحنُ آباؤكم.. فلا تشبهونا..
نحنُ أصنامُكم.. فلا تعبدونا..

نتعاطى القاتَ السياسيَّ والقمعَ.. ونبني مقابرا وسجونا

حرِّرونا من عُقدَةِ الخوف فينا واطردوا من رؤوسَنا الأفيونا

علّمونا فنَّ التشبث بالأرض ولا تتركوا المسيح حزينا

هكذا يعالج نزار القضية الفلسطينية بحسٍّ مرهف ووعي كامل، وهو يرفض الذل والاستكانة، ويعلم الكبار قبل الصغار النخوة العربية في النفوس، وهو مخلص في قوله، صادق في مشاعره تجاه هذه القضية، ولو أراد أن ينحرف عن هذا الطريق لاعتبر شاعر الدنيا ولحصل على الجوائز التشجيعية كما حصل عليها الآخرون...




الرجلُ البحّار..

شعر الدكتورة: سعاد الصباح

يُذكِّرني صوتُك
بصوتِ المطر..
وعيناكَ الرَّماديتان
بسماءِ سبتمبر
وأحزانُكَ..
بأحزانِ الطيورِ الذاهبةِ إلى المنفى
يُذكِّرني وجهُك
ببراري طفولتي
ورائحتُك
برائحةِ البُنِّ في كافيتيريات روما..
ماذا أستطيعُ أنْ أفعلَ من أجْلِك؟
أيُّها الرجلُ
الذي شقَّقَ شفتيهِ ملحُ البحر..







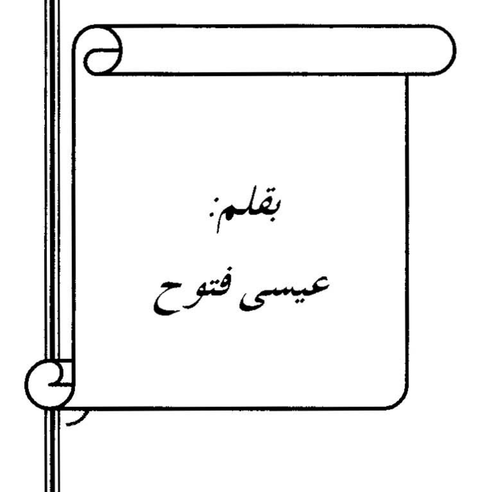
وطاردتْهُ سفنُ القراصنة
وتناثَرَ جسدُهُ على كلِّ القارّات
أريدُ أنْ أدخُل
في قميصِكَ المفتوح
وجُرْحِكَ المفتوح
وأكونَ جزءاً
من قَلَقِك..
ودَوَارِكـ..
ومَوْتِكَ الجميل
أريدُ أن أصعدَ إلى ظَهر سفينَتِك
التي لا تعترف بالمرافي..
ولا تعترفُ بالجُزُر..
ولا ترسو في أيِّ مكان
أريدُ أن أخَبِّئكَ في صدري
عندما تشتدُّ الريح
وتعصفُ العاصفة
فإمّا أن أنجُوَ معك..
وإما أنْ أغرَقَ معك..



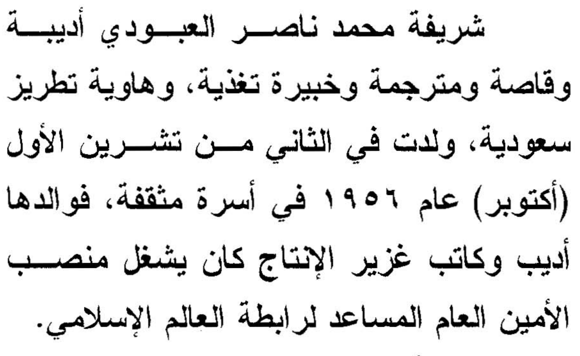



شريفة العبودي

قاصة و مترجمة



بقلم:
عيسى فتوح



شريفة محمد ناصر العبودي أديبة وقاصة ومترجمة وخبيرة تغذية، وهاوية تطريز سعودية، ولدت في الثاني من تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٥٦ في أسرة مثقفة، فوالدها أديب وكاتب غزير الإنتاج كان يشغل منصب الأمين العام المساعد لرابطة العالم الإسلامي.

حين أنهت دراستها الثانوية عام ١٩٧٦ سافرت إلى الولايات المتحدة الأميركية حيث تخرجت من كلية(سانتا أنا) في كاليفورنيا عام ١٩٨٠ متخصصة في الآداب، وبعد عودتها إلى الوطن أقامت في منطقة (القصيم)، وانشغلت بمهام الأسرة والعمل الاجتماعي حيث انضمّت إلى (جمعية الملك عبد العزيز الخيرية النسائية) عضو عامل في البداية ثم رئيسة للجنة الثقافية ثم رئيسة لمجلس إدارة الجمعية. وبعدها عادت لتستقر في الرياض ثم إلى مقاعد الدراسة من جديد حيث حصلت على دبلوم ترجمة من العربية إلى الإنكليزية وبالعكس من جامعة الملك سعود، ثم على البكالوريوس في نفس التخصص، وتتابع دراستها حالياً للحصول على شهادتي الماجستير ثم الدكتوراه في الأدب الإنكليزي.

كتبت في بعض الصحف والمجلات كمجلة (عالم الغذاء) وصحيفة (الرياض ديلي) التي نشرت فيها عدداً من قصصها بالإنكليزية، ووزعت جهودها على أكثر من ميدان كالتطريز هوايتها الأولى، والتغذية والغذاء، لأن الطعام – كما تقول – غذاء الجسد، كما أن الأدب غذاء

الروح، فضلاً عن أنه يعكس اهتمامها بأسرتها ونفسها من خلال محاولة الوصول إلى أفضل الأطعمة التي تكفل للفرد الصحة النفسية والعقلية ليحافظ على شبابه، ويتمكن من الإبداع.

تعترف الأديبة شريفة العبودي بأنها بدأت الكتابة في سن متأخرة، مع أن حب الأدب كان قد نما معها منذ سن المراهقة، ولكن زواجها المبكر، ثم انتقالها مع زوجها إلى الولايات المتحدة الأميركية وانشغالها بالإنجاب وتربية الأبناء، كل ذلك طمر رغبتها للإبداع في الأدب، وبعد أن بلغت سن الأربعين استيقظت من نومها الذي طال كثيراً لتجد أن العمر يجري، وأنها أخطأت في حق نفسها كثيراً، وأن ثمة براكين تتفجر في داخلها في أكثر من مجال، فبدأت الكتابة في الأدب وتوثيق هواياتها في التطريز والكتابة في مجال الغذاء والتغذية، وعادت إلى مواصلة الدراسة حتى استطاعت أن تحقق بعض أحلامها وطموحاتها، ولا يزال في جعبتها الكثير الكثير - كما تقول - مما ترجو أن تتمكن من إنجازه في المستقبل.

فازت بعدة مسابقات في مجال القصة القصيرة منها:

١- المسابقة الثقافية الكبرى لجريدة الرياض لعام ١٩٩٧ عن قصة (بيت الطين).

٢- المسابقة الثقافية الكبرى لجريدة الرياض لعام ١٩٩٨ عن قصة (رحلة بحث).

٣- المسابقة الثلاثون للقصة القصيرة (لنادي أبها الأدبي) عن قصة (رائحة الدخان).

٤- المسابقة السادسة للقصة القصيرة جدا (نادي القصة في جمعية الثقافة والفنون) عن قصة (الحمْل).

٥- المسابقة الثامنة عشرة (مسابقة راشد بن حميد للثقافة والعلوم) عن قصة (وغاب ضوء القمر).

آثارها

١- فن التطريز ١٩٩٣.

٢- معجم مصطلحات الأغذية والتغذية ١٩٩٨.

٣- التمر غذاء ودواء: مئة طريقة وطريقة لإعداد وصفات شهية من التمر، ١٩٩٨.

٤- وصفات أصيلة من القصيم ٢٠٠٢.

٥- حلقات من سلسلة (مجموعة قصصية) نادي الرياض الأدبي، ٢٠٠٢.

٦- فصائل الدم والنظام الغذائي: فصيلة الدم (O) ٢٠٠٤.

حلقات من سلسلة

تقول الأديبة السيدة شريفة العبودي في الكلمة القصيرة التي قدمت بها مجموعتها القصصية (حلقات من سلسلة): «إن هذه

القصص تمثل انطباعات من أماكن متفرقة، وأزمنة مختلفة... قد يكون بعضها أحداثاً وقعت بالفعل – وإن لم تخلُ من خيال اختلط بالواقع – وبعضها قصصاً من نسج الخيال، ولكنها تحمل نكهة الحياة».

وتضيف قائلة: «إن ما يجمع هذه الحلقات هو السلسلة التي تمثل حياتي، فكل ما مررت به أو قرأته أو سمعته من تجارب وأحداث وذكريات يشكل شخصيتي، وينعكس على ما أخط على الورق، وإن كنت لا أزال غير مقتنعة بمستوى قدرتي على ترجمة ما يعتمل في داخلي إلى واقع على الورق».

يتبين لنا من هذه المقدمة القصيرة أن قصصها ما هي إلاّ انعكاس لما جرى لها أو قرأته أو سمعته أو تخيلته... فأي قصة لا يمكن أن تكون واقعية مئة بالمئة، ولذلك يلجأ الكاتب إلى تطعيمها بوقائع وأحداث يمكن أن تجري في الواقع... وهو ما أكدته شريفة العبودي في قصصها الإحدى عشرة التي ضمتها مجموعتها الأولى (حلقات من سلسلة)، وبخاصة قصتها (بيت الطين) التي تحدثت فيها عن أسرة غنية، أصر أكبر أبنائها على هجر البيت الطيني المتواضع الذي ولد فيه والانتقال إلى فيلاّ في أحد أحياء المدينة الراقية، رغم معارضة والده الذي كان يؤثر البقاء في بيته الطيني القديم، وبين سكان حارته الطيبين، فأدى ذلك إلى انطواء الأب، وشعوره بالوحدة والوحشة والعزلة حتى وفاته... ولم يشعر الابن بخطئه الجسيم إلاّ حين عاد إلى البيت الطيني بعد عشرين عاماً من مفارقته، ليجد (الخواجة) الذي استأجره واهتم به، قد أحاله إلى جنة تجري من تحتها السواقي، ومع ذلك اضطر إلى تركه بسبب عودته إلى بلاده، فقرر الابن الأكبر العودة إليه والسكنى فيه، وتأسف على غيابه عنه طوال هذه المدّة، وعلى إجبار والده على تركه، والموت بعيداً عنه.

لقد هدفت الكاتبة من كتابة هذه القصة الممتعة إلى حث الناس على التعلق بالتراث، وعدم التنكر له والمحافظة عليه، والتوقف عن اللهاث وراء كل جديد. وقد أثارت براعة التصوير للبيت القديم مشاعر الشوق في نفس القارئ، وجعلته يتعاطف مع الوالد الشيخ الذي كان «يستطيع أن يجتمع بمجموعة من أهل الحي، حالما يجلس على المصطبة الطينية بجوار الباب الرئيسي خارج البيت، حيث يتقاطرون إليه، ويتبادلون معه الأحاديث وشرب القهوة والشاي، فيشعر حينها وكأنه سلطان زمانه، وأن أهل الحي هم أهله..».

كذلك هدفت إلى نقد الحياة المعاصرة، وما وفره الغنى السريع لبعض أبناء الأسر، «فالحارة لم تعد تناسبهم بشوارعها الضيقة المتعرجة التي تضيق بسياراتهم الفارهة التي لا يوجد مرآب يحتضنها في بيت الطين...».

أما قصة (الحمْل) فهي قصة واقعية أيضاً استقتها من مرويات الآباء، بطلها (أبو محيسن) الذي يعود إلى بلدته النجدية بعد

غياب عدة أشهر أمضاها في الهند لممارسة التجارة بأموال بعض أبناء بلدته التي جمعوها بكد الساعدين وعرق الجبين، وأعطوه إياها ليتاجر بها.

ويبدو أنه قد اعتاد تدخين التبغ هناك، وحمل في طريق عودته صرّة من التبغ، حار كيف يتخلص منها قبل الوصول إلى بلدته المتزمتة التي لا يبيح أهلها تعاطي التبغ، حتى انتصر أخيراً على نفسه ودفن الصرّة في رمال الصحراء.

لقد حملت هذه القصة، كما غيرها من قصص المجموعة طابع البيئة السعودية بلهجات أهلها وأحاديثهم وحكاياتهم، كما رويت، دون أن تغيّر فيها كلمة حفاظاً على واقعيتها كقولها: «شف، ترى لك ثلث الربح، ولي الثلثين، لأن القروش كثيرة» و «أنا أبو عييّل، ولا أطيق المطاريش، والبعد عن عيالي، وإلاّ كان سافرت أنا...».

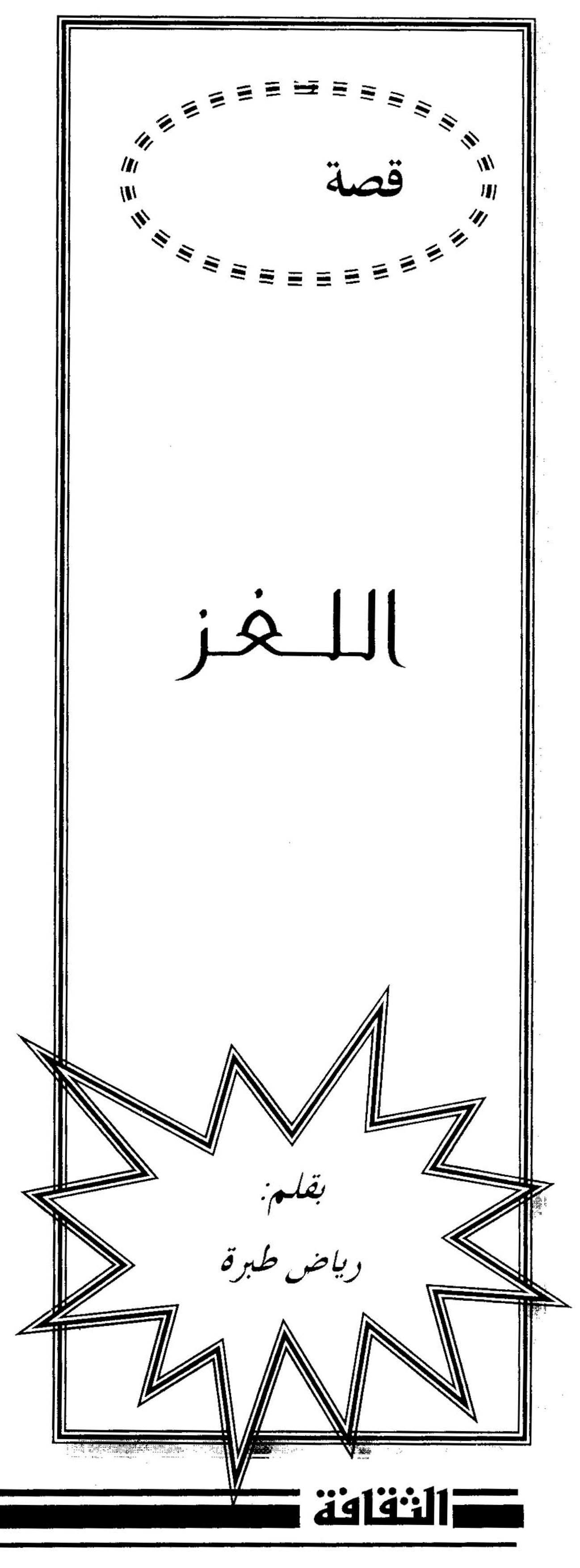
بقي أن نقول إن قصص (على مفترق الطرق) و (السقوط) و (ليلة في دار) تعكس غريزة الأمومة عند الكاتبة، من خلال خشيتها على الأبناء، فبطل الأولى شاب كادح مكافح، يعمل ويدرس في آن واحد، وينتظره مستقبل واعد...

وبطل الثانية شاب مدلل ينتهي به المطاف في غرفة الإنعاش وقد فقد صديقه إثر حادث مروري مهلك نتيجة طيشه واستهتاره..

وبطل الثالثة شاب ريفي يتشرد في إحدى المدن الكبيرة، باحثاً عن مستقبل غامض، بعد أن حال إخفاقه في إحراز علامات عالية في الشهادة الثانوية بينه وبين اختيار مستقبل مأمون واضح الاتجاه.

أما قصص (وغاب ضوء القمر) و(رحلة بحث) و(مشوار) و(رائحة الدخان)، فهي نسوية الطابع كما يقول الأستاذ يوسف بن عبد الرحمن الذكير، لا يخلو بعضها من سخرية وتهكم، كلجوء سائق سيارة الأجرة السعودي (جازي) إلى ارتداء القميص والبنطلون، وانتحال لهجة آسيوية، لنفور السيدات السعوديات من ركوب سيارة أجرة يقودها سائق سعودي، كما في قصة (مشوار)، ويفتقر بعضها الآخر إلى وضوح المضمون، كقصة (وغاب ضوء القمر) وإن كنت لا أوافقه الرأي، فهذه القصة ذات مضمون واضح يتجلى في تأثر بعض المصليات اللاتي يبدو عليهن الصلاح وهن في المسجد في العشر الأخير من رمضان بالمستوى الاجتماعي لمن يقبلن أو لا يقبلن بمعرفته وصحبته.

لا شك في أن فوز خمس قصص للأديبة شريفة العبودي بجوائز كبريات الصحف والنوادي الأدبية السعودية، لأصدق دليل وأكبر برهان على تميزها، وعلى المستقبل الواعد والمشرق الذي ينتظرها في الأدب.



هل أعلن إفلاسي وأتوقف عن مطاردة ليال؟ أم أن واجبي سيظل عنيداً لا يتراخى أمام اللغز المحيِّر الذي وضعني فيه غيابها المفاجئ؟

منذ تلك اللحظة التي فقدت فيها القدرة على الاتصال بها وأنا أمام حقيقة مرة كالثمار الفاسدة، الرقم المطلوب غير موضوع في الخدمة الآن..

سحبت رقمها الخليوي من الخدمة وغابت، لم تكلَّف نفسها عناء ترك قصاصة، تبلغني فيها قراراً ظالماً جائراً، لم يكن لي فيه غير تبعاته القاسية.

- بين لحظة وأخرى تفقد الاتصال بمن لا تقدر على رميها ولو بوردة، هي كالشرايين تضخ في شراييني عطرها الوردي وأنسها الأنثوي الفائق، عام من التواصل لا تغيب عني حتى تحضر، وقبل ثلاثة أشهر اكتفينا هي وأنا بوضع خاتمي الخطوبة أمام شاهد واحد.

اليوم بدأت حياتي تلبس ثوبها الرمادي الفضفاض، تغيب الرؤية عندي حتى لا أرى غير أوراق خريفية تتساقط، وتتراكض أمام هبوب رياح الشك والحقيقة.

ماذا دهاها؟ وإلى أي شعاب اتجهت واستقر بها المقام؟

اكتفت بكلمة مقتضبة لا تدل على شيء، قالتها لأختها ودموعها دماء حارة لونّت حياتنا بلونها، وأضافت هم البحث عن "القلب" في غابة اسمها لبنان..

لا تبحثوا عني: هذا ما قالته لأختها، وطوت وجودها خلف ستار من الكتمان، أما أختها فهي الأخرى طوت هذه الجملة عني

وحدي، لأظل في قلقي وحيرتي أبحث في مدينتي بل مدن بلدي، في مشافيها ثم أماكنها المظلمة، الجواب ذاته لم نرَ مثل هذا الوجه ولم نسمع عن حادث غامض..

فكّرت جدياً بالاتصال بالبث المباشر أسأل عن خطيبتي ثم أتصل بالتلفزيون، ثم لماذا لا أبعث بصورتها إلى الصحيفة التي أعمل بها علّها أو علّ من يراها يرق لحالي ويطفأ نيران حيرتي..

فكّرت في ذلك لولا أن شقيقتها كانت تماطلني وتطلب مني أن أظل هادئاً فالشامتون كثر، وسيكون البيت القريب أكثرهم شماتة..

تراخيت في عزيمتي هذه وأخذت أفكر فيها لا بنفسي هكذا صار عليَّ أن أبحث عنها، لا أن أبحث عن جواب لم يعد يهمني في شيء..

ومنذ أبلغتني شقيقتها بوجودها في لبنان أخذت أبحث عنها؛ عن أسباب غيابها علّي أساعدها في تجاوز ما ألمَّ بها ودفعها إلى الاختفاء هكذا...

محطتي الأولى في لبنان كانت الجهات المقربة من المقاومة، فالخاطر الأول كان أنها التحقت بالجنوب، هناك تطيب الشهادة وتتعمد بالنقاء. وبإمكان ليال أن توجه رسالة توضّح فيها كل شيء...

حمل الجواب على سؤالي هذا شيئاً من الاستخفاف بي، قالها بائع سجائر على ناصية الطريق:

– هل تظن أن أحداً يمكن أن يدلك على فتاة اختارت العشق الإلهي..

رجعت إلى محطتي الثانية وكانت بيروت هي تلك المحطة، وكم كانت بيروت تغلي وتفور بكل شيء وهي دائماً كذلك، قصدتُ علب ليلها وأكثر أماكنها ظلاماً، كنت قد سمعت همساً وعلناً أن الفتيات الهاربات من أنفسهن يجدن في حي هناك متع تعذيب الجسد... وفرص الانتقام ممن كان وراء قذفهن إلى هناك..

جاءني الجواب هذه المرة مما رأيت، عدت أدراجي وتمنيت لو رأيتها جثة هامدة قبل أن تصل قدماها إلى هناك.

لم يبق أمامي إلا محطة حسبتها أخيرة ثم أعود أدراجي لأصلي علَ معجزة تعيد لي توازني، وتخفف عني ثقل ما أحسست به، تجاه "قلبي" الذي تخفّى عني وأندس بين الناس..

في الطريق إلى أحد الأديرة حرّك كفي عيني غير مصدق، إن شقيقتها عائدة من هناك، السيارة التي كانت تقلّها كانت تتهادى في المسير والسائق يقدم لها محارم ورقية وهي تأخذ في كفكفة دموعها.. يا إلهي ماذا حل بليال، ولمَ جاءت إلى هنا وماذا عرفت شقيقتها عنها...

ترجلت من سيارتي ودخلت إلى ممر يؤدي إلى الباب الداخلي وأخذت أخفي لهجتي عن الفتاة التي لا ينقصها شيء من الذكاء..

– هل جئت تطلب ليال أيضاً.. قبل قليل زارتها شقيقتها، أنت من تكون؟ وما الصلة بينكما طالما اختلفت الكنى. هل أنت خطيبها؟..

– راحت دموعي تنهمر كجواز سفر لقلب تلك الفتاة.. وقد أدركت ذلك فربما زار الحب قلبها ذات يوم، فعمدت إلى منحي تأشيرة دخول دون تكاليف تذكر..

استقبلني الأب الجليل بكثير من الوقار والحذر قائلاً:

إن وافقت على مقابلتك لا شيء يمنع من ذلك وأشار إليَ بيده الكريمة مع ابتسامة لا تخلو من إشفاق.

رحت أعد الثواني وأتضرع أن يكون الجواب بالإيجاب، لا أن يكون مصيري كمصير تلك التي لم تجد غير الدموع تذرفها على تمنع ليال.

كرر الأب المحاولة لإقناعها، فهذا الوقت الذي مضى على وصولي ساعة أو أكثر جعلني كحطب أعدَّ للاشتعال، وكلّما وقفت وجددّت قطع المسافة بين مقعدي وباب صالة الانتظار جاء من يخفف عني هذا العناء، حتى إذا ما عدت إلى هدوئي تأججت مشاعري من جديد...

ابتسامة الأب الجليل وهو يعبر باب الصالة أبعد عني معظم مخاوفي إذ سارع إلى إعلان تلك الابتسامة بإشارة من يده فهتف قلبي:

- يقيناً إن هذا الأب عرف المحبة كلَّها في حياته، و إلاّ لما كان هنا بهذه القامة والوجه الوردي والمقدرة على إعطاء الأشياء ما تستحقها من ودّ، وصرامة، من حزم وسماحة. كانت ليال خلفه بثوب سماوي وحزام أبيض تدلى على خصرها...

يا إلهي إنّه الشهر المريمي بحضوره البهي..

انصرف الأب بعد أن حددّ مدة اللقاء بخمس دقائق، فليال لا تسمح بأكثر من ذلك، ومن عينه فاضت إيماءة بغير ذلك...

أطرقنا دون مقدرة على الكلام، ثم رفعتُ رأسي لأجدها ما زالت على حالها، لم أجرؤ أن أضع يدي على رأسها، أو ألمسها فقد نهضت التعاليم الدينية كحواجز لا تأذن بأقل من ذلك..

أفلت اسمها من بين شفتي كقطعة حلوى لم يكتمل ذوبانها:

- ليال..

- إياد سامحني.. أنا حزينة على فراقك وسأظل إلى الأبد أمينة لحبنا، وسيتطّهر هذا الحب أكثر إن تمكنت من تركي وشأني، لقد وجدت صليبي على كتفي، ولم أبحث عنه جاءني هو ولم أسعَ إليه..

- من وضعه على كتفك هذا ما جئت لأعرفه...

- من حقك أن تعرف وسأساعدك في ذلك لكن ليس الآن.. مازلت أحاول أن أجد نفسي هنا دون جدوى فساعدني، وتعال إلى زيارتي مرة أخرى وسأبوح لك بكل شيء..

- ما جدوى أن أزورك ثانية وثالثة وأنت هنا في هذا الصرح العظيم والاختيار الذي لا تراجع عنه.

- لا..لا..تظن ذلك.. لا رجعة عن قراري.لكنّ الله لن يسامحني إن لم أدخل إلى قلبك الطمأنينة. فأنت الوحيد من أهلي ممن لم يضع مسماراً واحداً في نعشي، أو شارك في رفع هذا الصليب ووضعه على كتفي..

وأحتفظ لك بكل ما يحمله قلب طاهر لقلب طاهر..




لك الجنان...

شعر: كامل إسماعيل

لك الجنان..
خلوداً..
ناعماً..
مرحاً..
ولي الشفاءُ..
وطيف البعد أكواني
أعمال عمريَ..
لم تغسلْ..
شوائبَه
ولم تزحْ..
عنه..
أوزاري..
وأدراني
دماء قلبي..
دفوقٌ..
فوق هامتها
لتمحوَ الوِزْرَ
من طيات أجفاني
أعباءُ شتّى..
حملناها..
معتقة
تدفقت عبر..
أحقابٍ..
وأزمانِ
ذنبٌ..
أنوء به..
مازال يرهقني
مذ كنت طفلاً..
ويدمي جسمي الفاني






ظمآنُ..
أشربُ من كأسي..
واترعها
حتى أروي..
ببعض الحبِّ..
شطآني
وأروي بالشوق..
كثبانيَ..
ومن شرعوا
يتلون بالعشق..
إنجيلي..
وقرآني
لن أشكو يوماً..
لغير الحبِّ
مظلمتي
ولن أداوي..
بغير الشوق..
وجَداني
جرحي..
على الدَّهر..
أرويه..
واسعفه
من مهجتي..
ليصير المتعبَ الواني
ومأملي..
عشته دهراً..
فأرقني
وأفرحَ القلبَ ردحاً..
ثم أشقاني
أُكفكفُ الدَّمِعَ..
شوقا..
ثم أمسحُهُ
حتى ارتوى..
من فضيض الدمعِ..
إيماني







أحدثُ النَّفْسَ..
عن شرقٍ..
وعن سبأٍ
وعن محبٍ..
قريرِ العين..
وسنانِ
يلملمُ الوجدَ..
مِنْ لمياءَ..
ساحرةٍ
وفي محياها تجلو..
كلَّ أحزاني
حدثتُ قلبيَ..
عن حورٍ..
وعن ميسٍ
عن كلِّ طَرفٍ..
جميلِ الهدبِ..
حيرانِ
جاءتْ عَشِيْقَةُ روحي..
وهي واجمة
تميس..
مثلَ قضيب الآس..
والبانِ
ما ذنبُ عيني..
وأجفاني..
إذا عشقت
من مائس القدِّ..
من إبداعِ فنان
هي التي..
ببخورِ الشوقِ..
مترعةٌ
يشتاقها..
حسنُ بلقيس..
بتيجانِ

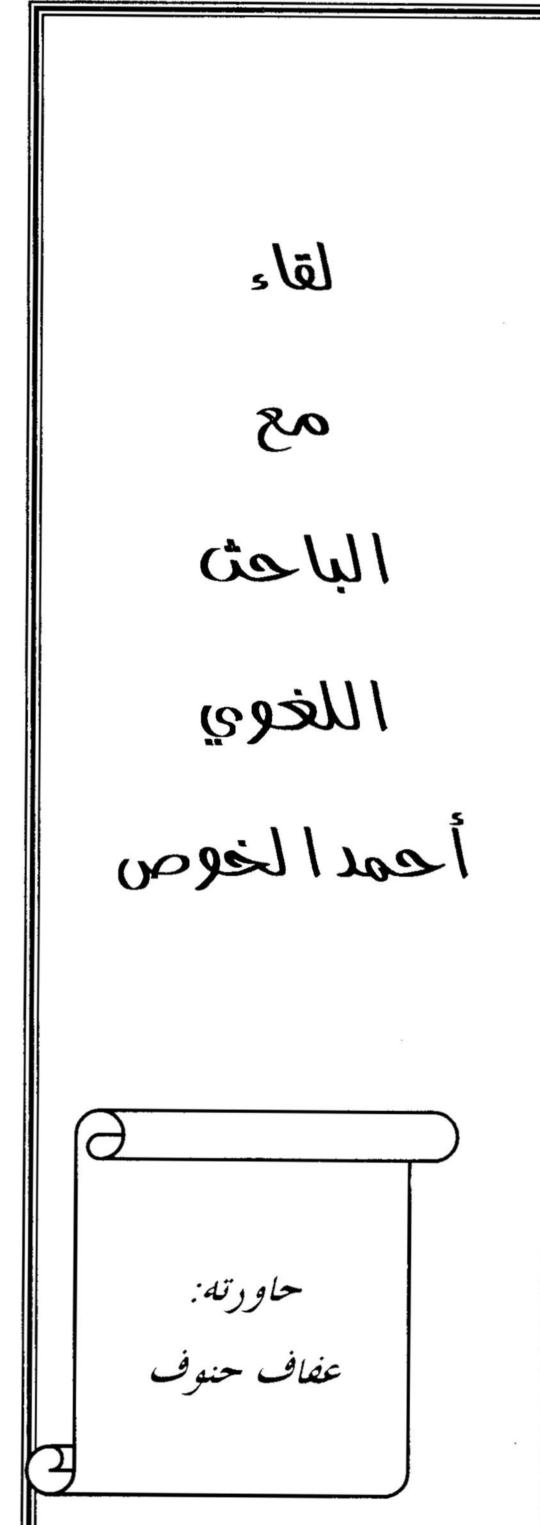






شربتُ..
من ثديها خمراً..
فأرقني
وصرتَ في الكأسِ..
صنع المبدع..
الباني
تحوّل الخمر..
في كاساتها..
عسلاً
لو شاء نهدها..
منه..
كان أحياني
أعطت وما بخُلَتْ..
في الساح..
عن أحد
غنّتْ لكلِّ عشيقٍ..
أحلى ألحانِ
قد كان خمرها..
قبل الخلقِ..
في فمها
واليوم خمرُها..
في حباتِ..
رُزّانِ
لم يعرفِ الكاسُ..
لولاها..
نقاوتَهُ..
ولا ارتوى شاربٌ..
من كفٍ لقمانِ
هي الحقيقة..
في أسمى مظاهرِها
بها عرفتُ..
رساميلي..
وأكفاني.



يدهشك تعلّقه بها وهي البحر بمدها وجزرها وعمقها وروعة أسرارها.. وتدهشك بساطة تعامله معها كعاشق هارب من ضوضاء المدينة والبروتوكولات والقوالب الجامدة.. وإذا سألته عنها يقول لك بانسيابية الماء هي الصديقة والحبيبة.. ورفيقة الدرب والهوى.. والفكر والانتماء.. بل هي الهوية والوجود.

يحاورك بكل ما يمتلك فن الحوار من رقي وشفافية.. ومهما أفردت على طاولة الحوار مختلف المواضيع الثقافية والأدبية والحياتية وحتى الشخصية، وهو الإنسان المثقف يختار بروية من أين يبدأ الحديث وإلى أين يمضي به ومتى يصمت..

فإذا كانت حبيبته ورفيقة دربه اللغة العربية فبالتأكيد هو الباحث اللغوي الكبير الأستاذ أحمد الخوص الذي تشرّفت بلقائه شخصياً.. وبقدر ما أرهقته بأسئلتي كان مصراً على اتخاذ الدرب الأقصر في الإجابة.. إلا إنني أردت لحوارنا أن يشمل مختلف مواضيع (العربية) كلغة وكقضية.. وهمّ إنساني وبطاقة تعريف حقيقية لنا إلى العالم وإلى الغير الذي يسعى إلى ردمها ووأدها.. إلا إن ضيق الوقت الذي جمعنا فرض علينا مسير الرحلة.. ومن بين كم كبير من التساؤلات الحاضرة في ذهني كان اختيار السؤال الأول المهمة الأصعب.. لذلك سألته:

- لماذا اللغة العربية؟

** وبهدوئه المعتاد أجاب: بالتأكيد لأنها لغة حضارة قوم لا يعيشون إلا بها ولا يموتون إلا دونها.. وإذا تمسكنا بهذه اللغة فسنحيا مع بقية الشعوب العربية.. وإذا تركناها أصبحنا إرباً إربا متناثرين هنا وهناك.

جبران واللغة العربية

• في محاضرة كنت قد قدمتها في دار الأسد للثقافة لفتني عنوانها (جبران واللغة العربية) فلماذا (جبران) على الرغم من كل الاتهامات التي وجّهت إليه ومنها الدعوة إلى اللهجة العامية وضعفه في العربية والنحو، واستعماله لبعض المفردات العامية في كتاباته؟

** أولاً أقول إن جبران من القلائل اللذين عملوا لهذه اللغة العربية وأسهموا في الحفاظ عليها.. كما إن جبران خليل جبران هذه الشخصية الفذة استطاعت ربط المغتربين العرب في مهاجرهم بوطنهم الأول ولغتهم الأم، كذلك انتشرت مؤلفاته في كل بيت وترجمت إلى كل لغة.

• دعني أعود إلى التهمة التي وجّهت إلى جبران (الدعوة إلى اللهجة العامية) فكيف استقرأت موقف هذا الأديب من هذا الأمر؟

** سأستشهد بقول جبران "إن اللغات تتبع - مثلَ كل شيء آخر - سنّة البقاء للأنسب، وفي اللهجات العامية الشيء الكثير من الأنسب سيبقى لأنه الأقرب إلى فكرة الأمة، وأدنى إلى مرامي ذاتها العامة، قلت إنه سيبقى، وأعني بذلك أنه سيلتحم بجسم اللغة، ويصير من مجموعها" فموقف جبران من القديم في اللغة العربية ونقده لهذا القديم من فنون وأعلام في الأدب العربي ما هو إلا شحذ للقرائن والنفوس للتجديد في الألفاظ والتعابير، فكما أن لكل زمان دولةً ورجالاً، فكذلك لكل زمان ألفاظٌ تتطور مفاهيمها ومدلولاتها، وليس نقده للبديع والبيان والمنطق، ولسيبويه وأبي الأسود وابن عقيل، ومن جاء قبلهم وبعدهم من المضجرين المملّين إلا دعوة صادقة لنساير روح العصر الذي نحن فيه، وهذه الدعوة رأيناها في الحديث النبوي الشريف القائل: (من تساوى يوماه فهو مغبون) فكيف ونحن نجتر منذ مئات السنين الشواهد الإعرابية والبلاغية تتنقل من فكر رجل إلى آخر لتصبّ في هذا الكتاب أو ذاك.

• إذا فما هو موقفك من اللهجة العامية وأنت لديك ما يربو على ٢٧ كتاباً في النحو والبلاغة والعروض والإملاء والإنشاء والتعبير؟

** الواقع أن ليس هناك لغة يتكلمها شعب من الشعوب دون الاختلاف بين مدينة وأخرى أو قرية كذلك اللهجات، فكلام البشر يختلف حسب الأرض والمناخ إلى آخر هذه العوامل الطبيعية التي تتأثر فيها الشعوب والأفراد على حد سواء، فكما أن لون البشرة وشكل العينين والشعر عند خط الاستواء يختلف عن سكان القطب الشمالي أو الجنوبي، وهذا الفارق يكون في اللغة، كما هو في الأفراد، فمعظم اللهجات العامية ومفرداتها هي بالأصل لغة فصيحة، ومن يراجع قاموس (ردّ العامي إلى الفصيح) لمؤلفه (أحمد رضا) يرى مصداقية ما نقول.

اللغة العربية لغة غير متعصبة

• في بداية دردشتنا السريعة قلت إن هوية الأمة تكمن في لغتها، فما دور اللغة في الحفاظ على هوية الأمة العربية خاصةً وإن الويلات والمصائب قد حلّت ضيفاً ثقيلاً على هذه الأرض لتقتل كل ذرة من عروبة وتاريخ، ومن إسلام ومسيحية على حدّ سواء كما أكّدت لي؟

** إذا كانت العربية الرباط الأقوى لهذه الأمة في الماضي والحاضر والمستقبل، وهي لغة أهل الجنة أيضاً، فلا شك أنها لغة غير

متعصبة لشعب أو دين أو لون، فكل من تكلمها فهو عربي وبهذا الحسّ الحضاري الإنساني دخل الناس في دين الله أفواجاً دون تعصب للغة أو قومية، ولهذا السبب ذاته حاولت معاول الهدّامين أن تنقض على هذه اللغة وتئدها في مرقدها. ولاشك أن المعركة بين القديم والجديد قديمة قدم التاريخ إلا أن أعنف هجمة مرّت بها أمتنا الهجمة على اللغة العربية في وقتنا الحاضر بعد أن رحل عنّا الاستعمار، وأبقى عملاءه في مراكز القرار والقوة ممهداً إلى غزو ثقافي جديد يضعف اللغة ويقلل من شأن القيّمين عليها بدعوى التحديث والتطوير.

أحببت أسلوب الأديب مدحت عكاش فألفت كتبي

• ٢٧ كتاباً تحولوا إلى مرجع للطلاب والمدرسين والباحثين، بأسلوب يعتمد تبسيط القواعد وكسر القوالب الجامدة، فمن أين استقيت فكرة أسلوب التبسيط اللغوي؟

** أخذت فكرة الكتاب الأول من قصة كنت قد قرأتها وهي قصة (الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن) للشيخ نديم الجسر الذي أدار حواراً بين (حيران والشيخ الموزون) فوظفت مبدأ الحوار لكني جعلته بين الأستاذ والتلميذ لشرح قواعد اللغة بأسلوب مبسّط، وعن سبب اختياري أسلوب تبسيط قواعد اللغة العربية في تأليف كتبي فقد جاء نتيجة لرسوبي في مادة اللغة العربية لثلاث سنوات متتالية في الثانوية العامة إلى أن جاءني الأستاذ مدحت عكاش وأعطاني قواعد اللغة بعد أن بسّطها لي بأسلوبه الرائع وهذا ما جعلني أحب المادة، وما زلت أذكر أول بيت شعر أعربه لي:

وعين الرضى عن كل عيب كليلة
ولكن عين السخط تبدي المساوئ

وبعد أن أحببت أسلوبه ومادته قلت في نفسي لماذا لا أنقل هذه الفكرة إلى الطلاب الذين يُقال لهم ما لا يُقال فكتبت (مكانة النجد) وألفت أربع أجزاء للكبار ثم اتجهت للأطفال وهكذا استمررت.

الطالب ومادة اللغة العربية في المدارس خطان متوازيان لا يلتقيا

• وجّهت جهودك واهتماماتك إلى الطالب أولاً فهل استطاعت وزارة التربية في سورية إعداد مناهج مادة اللغة العربية لكافة المراحل بأسلوب يجعل هذه المادة جزءاً منّا ومن حياتنا وليست عبارة عن درس مجبرين على حفظه بصماً من أجل الامتحان؟

** مناهج اللغة بعضها صالح ويتطور وبعضها الآخر ما زال كما هو.. مثلاً كتاب الصف العاشر وما يتضمنه من شعر جاهلي بألفاظه المعقدة التي لا يحبها الطالب، في الوقت الذي علينا فيه اختيار الألفاظ المأنوسة الموحية الجزلة حتى يعيشها، لذلك نجد طالبنا في إطار واللغة العربية في المدارس في إطار آخر ويسيران في خطين متوازيين لا يمكن أن يلتقيا.

• فأين المشكلة برأيك؟

** المشكلة في المؤلفين.

• عندما تؤلف كتاباً، ما هو الطقس أو الجو الذي تحيط نفسك به؟

** أولاً الكتاب يستغرق مني في تأليفه سنة تقريباً، وكل يوم أعمل قرابة الساعتين والتواصل في العمل هو الذي ينجز الأعمال، وزوجتي هناء تساعدني في الكتابة، كما كان

يساعدني صديقي هشام شحود الفنان التشكيلي إلى أن استقر في اللاذقية فأخذته مني مع العلم إن هشام هو من يرسم لي أغلفة كتبي والرسوم المتضمنة الكتب.

لقاء السيدة الأولى المحطة الأغلى

• المحطات الأغلى في حياة الباحث اللغوي أحمد الخوص؟

** المحطة الأولى هي لقائي بالسيدة الأولى أسماء الأسد قبل خمس أو ست سنوات في مكتبة الأسد إذ كان يقام آنذاك معرضاً للكتاب، وقد دار حوار بيننا عن الكتب وضرورة مساعدة وزارة الثقافة لي واقتناء كتبي، ومازلت أذكر فرحي بعد شراء وزيرة الثقافة آنذاك لعدد من كتبي.

أما المحطة الثانية فأنا أعتبرها ولادة من جديد بعد أن ألفت أول كتاب لي عام ١٩٨٢ حيث تغيرت طبيعة حياتي من السلب إلى الإيجاب ومن الضعف إلى القوة ومن الفقر إلى الغنى.

• هل أنت راض عن كتبك؟

** العالم كله دهش من هذه الكتب وهذا الأسلوب الجديد والذي لا يشابه مناهج الدراسة، وعندما أصدرت كتبي جعلتهم يرون مناهج وزارة التربية القزم ولم يعد أحداً يصدق إن كتب اللغة العربية المدرسية في سورية مازالت هكذا.

• وماذا عن طموحك فيما يخص اللغة العربية؟

** أن تنتشر هذه الكتب بين الناس يقرأها الكبير والصغير على حد سواء لأن لغتنا مقدسة وهي رابطة التفاهم الوطني والقومي بين اللغات.

• لا بد من الختام فماذا تقول؟

** ولأنني إنسان دؤوب على عملي محافظ عليه كالمتعبد الذي يحافظ على صلاتي، وأنا أطلب من الله أن تحقق أمنية القائد الخالد حافظ الأسد أن تنتشر اللغة العربية لأنها هي عنوان حضارتنا ومستقبلنا وتميّزنا عن بقية الأمم والشعوب.. كما أتمنى التوفيق لسيادة الرئيس الدكتور بشار الأسد في المشروع الوطني لتمكين اللغة العربية في سورية وتفعيل دورها لأن غاية المشروع الحفاظ على الهوية العربية ولا شك إن اهتمام سيادة الرئيس باللغة العربية كان له صدى كبير على مؤلفاتي بشكل خاص.

أحمد الخوص وهذه الإضاءة

** ٢٧ كتاباً و٦٣ عاماً و١٥ سنة من عمر مشروعه العربي.*

** كرم في آب الماضي من هذا العام من قبل الدكتور رياض نعسان آغا وزير الثقافة السوري وذلك في الزبداني احتفاءً بدمشق عاصمة الثقافة العربية ضمن الفعاليات الثقافية لمهرجان (سوار الشام الخامس) تقديراً لمسيرته في البحث اللغوي والتأليف.*

** أصدر سلسلة قصة الإعراب للكبار في ستة أجزاء، وسلسلة قصة الإعراب للأطفال واليافعين في ثلاثة عشرة جزءً، وأصدر كتاب قصة الإملاء والإنشاء والإعراب والبلاغة للكبار والصغار وكتاب من الجاني وعروبة نزار قباني وغيرها من الكتب كما جدد كتاب قصة الإملاء والبلاغة للكبار وقصة الإملاء والإعراب والإنشاء للصغار.*




لحاظ العين..

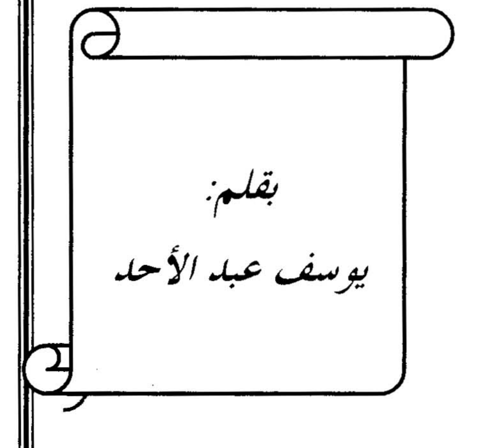
شعر: خالد بدور

كتبــــتُ الشِّــعرَ مــــن وَجْــدي
لأكْسِـــبَ حُبَّهـــا الــــوردي
ســـأكتبُ قِصَّـــةً عنهـــا
كـــريمِ الــــرَّوضِ في الهِنْـــدِ
تَمَنَّـــى القلـــبُ أن يَحْظَـــى
بوصـــلِ ســـاحِرِ الوعْـــدِ
وأَنْشُـــقُ ريحهـــا عَبَقـــاً
يُـــذِيبُ غَوَائِـــلَ الصَّـــدِ
لِحَـــاظُ العـــينِ تَقْـــتُلُني
كَسَـــهْمٍ بَـــالِغِ الحَـــدِّ
فَيَغْـــدو قَلْـــبيَ الـــواهي
صَـــريعَ الحُـــبِّ والوَجْـــدِ
وخَمـــرٌ في مُحَيَّاهَـــا
يُدَغْـــدِغُ شَـــهْوَةَ البُعْـــدِ
إذا مـــا ذُقْتَـــهُ يومـــاً
كَطَعْـــمِ اللَّـــوْزِ والشَّـــهْدِ
لَـــئِنْ قارَبْتَهـــا تَبْغـــي
ارْتِشَـــافَ الثَّغْـــرِ والخَـــدِّ
فَعِطْـــرُ الجِسْـــمِ يَنْفَحُنَـــا
أَرِيـــجَ مَفَـــاتِنِ القَـــدِّ
وصَـــدْرٌ دَافِـــئٌ بَطِـــرٌ
يُـــرِيحُ الصَّـــبَّ مـــن سُـــهْدِ
إذا مَـــا صُـــبْحُها لاح
نَعِمْـــتُ بِنُـــورِهِ وَحْـــدي




نازك العابد بيهم

١٨٨٧ - ١٩٥٩



أديبة وصحفية ومناضلة ورائدة النهضة النسائية في سوريا ولبنان.

ولدت في دمشق عام ١٨٨٧ من أسرة عريقة. والدها مصطفى باشا العابد من أعيان دمشق تولى محافظة الكرك ثم ولاية الموصل في العراق في العهد العثماني.

والدتها السيدة فريدة الجلاد من سيدات دمشق الفاضلات، تعلمت مبادئ العربية والتركية في المدرسة الرشدية بدمشق ثم تابعت دراستها في المدرسة الرشدية في الموصل بالعراق حيث كان والدها والياً عليها.

درست اللغة الفرنسية والإنكليزية في معاهد خاصة وأخذت تنشر مقالاتها في مجلة العروس لصاحبتها ماري عجمي ومجلة الحارس وكانت تدعو إلى نهضة المرأة العربية وتحريرها وطالبت بحقوق المرأة الاجتماعية والسياسية.

خلال الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦ فقدن كثيرات من النسوة أزواجهن وآباءهن فقامت نازك مع نخبة من سيدات دمشق

المناضلات وأسست جمعية نور الفيحاء لمساعدة المنكوبات وافتتحت مدرسة باسم الجمعية لبنات الشهداء عام ١٩١٨ ومشغلاً للخياطة لإحياء الصناعات والفنون الوطنية.

أصدرت مجلة (نور الفيحاء) في شباط ١٩٢٠ وهي مجلة نسائية أخلاقية أدبية صدر منها تسعة أعداد.

جاء في مقدمة العدد الأول:

"نحمد الله الذي منحنا من قوة الجسد ووهبنا من العقل والفكر ما نقوى بهما على خدمة هذا الوطن، والذي شجعنا للإقدام على هذا العمل الشاق هو أن نشجع غيرنا من سيدات سوريات، المتعلمات وغير المتعلمات ليعبرن عن أفكارهن بقدر الاستطاعة ويطالبن بحقوقهن المشروعة".

أسست النادي النسائي الأدبي وشاركت في تأسيس فرع للصليب الأحمر الدولي باسم جمعية (النجمة الحمراء) وتحولت بعد ذلك إلى (الهلال الأحمر).

تزوجت من المؤرخ اللبناني الكبير (محمد جميل بيهم ١٨٨٧ - ١٩٧٨) وجاءت معه إلى بيروت حيث استأنفت نشاطها الاجتماعي وأخذت تساعد العاملات وأنشأت لهذه الغاية (نقابة المرأة العاملة) سنة ١٩٣٣، وبعد نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ قامت مع بعض السيدات الفاضلات لتأمين العمل للاجئين وأنشأت لهن مدرسة داخلية ومشغلاً صناعياً وميتماً لبنات الشهداء في لبنان.

حازت على مرتبة رئيس في الجيش العربي السوري بموجب المرسوم في ١٧/ ٧/ ١٩٢٠.

لم تنجب أولاداً ولكنها قامت بتربية عشر بنات في بيتها.

نالت وسام الشفقة (الهمايوني) من السلطان عبد الحميد الثاني سنة ١٩٢١ ووسام الأرز اللبناني برتبة فارس سنة ١٩٥٧.

وافتها المنية في صيف ١٩٥٩ في بيروت وأقامت لها الهيئة النسائية حفل تأبين في بيروت وأشاد الخطباء بمآثرها ونضالها وما قدمته من خدمات وتضحيات خلال حياتها.




وارف العشق..

شعر: خالد سرحان الفهد

لــــــكَ مـــــن خمـــــرٍ معتـــــق

شـــــفةٌ أمضـــــى وأغـــــدقْ

لـــــك مـــــن وارف بســـــتا

نٍ بـــــه فـــــلٌّ وزنبـــــقْ

لـــــك صـــــوتٌ يتهـــــادى

بفضـــــاء الـــــروح مطلـــــقْ

لـــــك مـــــا شـــــئت ومـــــا لمْ

مـــــن عيـــــونٍ تتعشـــــقْ

وأرى البحـــــرَ إذا واصلـــــ

ـــــتَ مجنونـــــاً تـــــدفق

وأرى الميـــــتْ مـــــن العـــــو

د إذا وافيـــــتَ أورقْ

وأرى الصـــــخر علـــــى قســـــ

ـــــوَته يهـــــوى ويقلـــــق

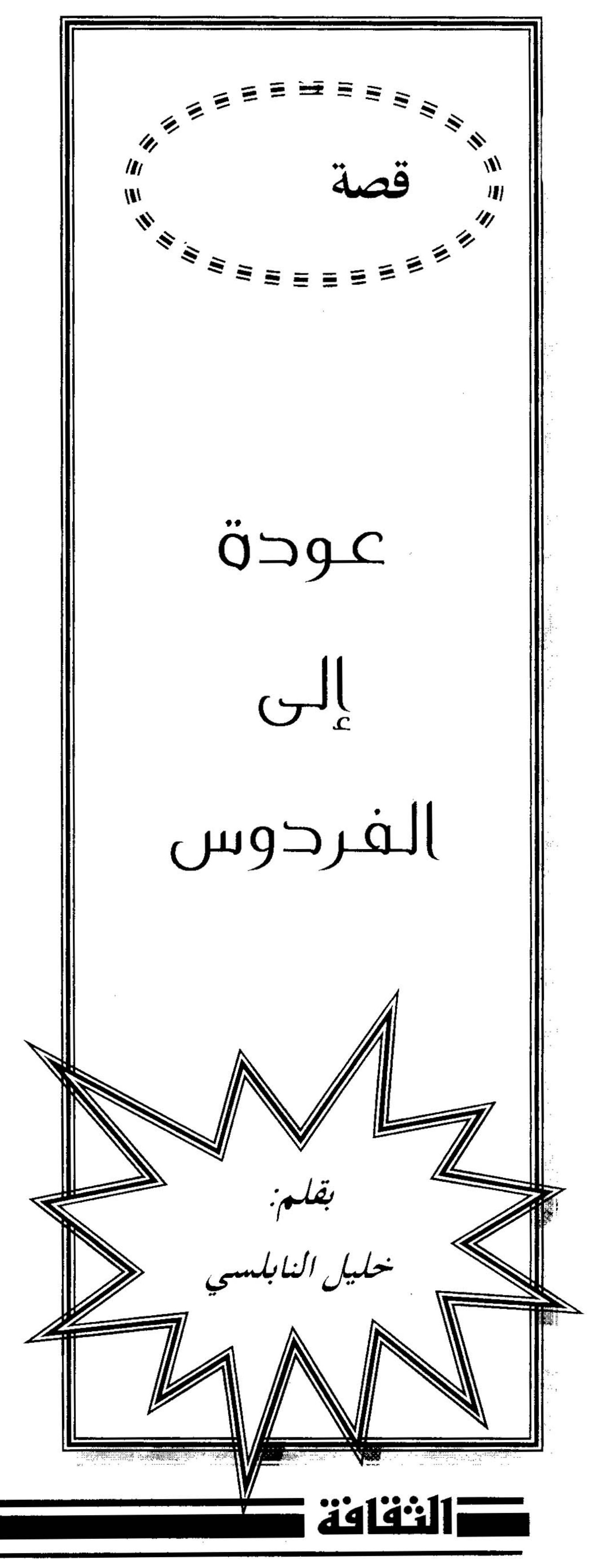






باختصـــــارٍ سَـــكِرَ الكـــو
نُ إذا مـــا فيـــكَ حـــدق
نم قريـــر الجفـــن مطبـــقْ
أيهـــا القاتـــل واغـــرق
بنعـــيم الكيـــدِ مـــن قلـــ
ـــبٍ إذا وافيـــت صـــفق
بـــك آمنـــتُ وقـــد صدقـــ
ـــت شـــيئاً لا يصـــدقْ
أن حزنـــي أبـــداً ولـــ
ـــى وصـــبحي فيـــك أشـــرق
أنـــا لا أطلـــب رحمـــا
كَ ولا أن تتصـــــــدق
وإذِ الســـاعةُ حانـــت
وإذا ســـيفك أصـــدق
وإذا جئتـــك شـــوقاً
صـــاحب الأشـــواق أحمـــق
ســـيدي أرجـــوك في
ســـفك دمـــي لا ترفـــق
ولمـــاذا مـــن لـــه قلـــ
ـــبٌ كقلـــب الصـــوص يعشـــقْ



(١)

– من هذه النّقطة تبدأ حدود الوطن..

هكذا قالت أمّي، وقد تسربلت بالفرح، رأيت الفرح يتسلّق وجهها، عينيها، فمها. كنت أجاريها بنفس المشاعر والأحاسيس.

الحافلَةُ التي أقلّتنا كانت مرهقةً متعبة، سال لعابها فاتّسخت ثيابها. فجأةً توقّف هدير محرّكها، نزل الرّكاب، وطأت قدماي الأرض المقدّسة بعد سنيٍّ غربة.

كانت سماؤها أجملَ، أرضها، جبالها، هواؤها، أشجارها طيورها، أو هكذا خيّل لي.

في اللّقاء الحالم تتجدّد الروح، وتتهادى الشّمس بثوب الفرح فيزداد الكون ألقاً وإشراقاً، والأزاهيرُ تَعِدُ بموسمٍ من العَبق السّاحر، ويحلو الكلام حتّى يصبح له طعم اللّوز والسّكّر، كانت الطبيعة تموج بالخضرة والنّدى، وكلُّ ما حولنا بدا متألّقاً أخّاذاً، فانهمرت في داخلي الكلمات بروقاً ومطراً وأضاءت جوانبي، وبدأت أرضي القاحلة تعبُّ الماء، وينمو حولي النرّجس والزّنبق.

– أحقّاً أنا في بلدي بعد غياب خمسة عشر عاماً؟!

ما زلت أذكر السّنوات العجاف التي قضتها معظم الأُسَر في قلقيلية بعد حرب النّكبة وكيف احتلّت "إسرائيل" أراضي البلدة وبيّاراتها وحقولها وأحاطتها بشريط شائك لا ينفذ منه أرنب.

وهكذا أصبحت البلدة جرداء خاويةً، خلعت عنها "إسرائيل" ثيابها فبدت سوءتها.

ضاقت سبل العيش، فجَّرَ اليهود آبار البلدة، قتلوا شيوخاً ونساءً وأطفالاً، حتّى الحيوانات لم تسلمْ، حرقوا الزّروع والأشجار والمنازل، فقُتلَ من قُتِلَ، وهاجر من هاجر.

وبينما كنت أستعيد هذه الصّور القاتمة إذ صرخ بي السّائق:

– ما بك؟ ألا تسمع؟!

بدأت الرّحلة نصفها الثاني، أطلّتْ علينا جبال نابلس. أيقظني من شرودي صوتُ أمّي قائلةً:

– في هذه الجبال قاتل والدك وجدّك الإنكليز، كانت الثّورات ضدهم تنطلق من هذه الجبال حتى سُمّيت نابلس "بجبل النّار".

وأردفت قائلة:

– أذكر أن الإنكليز فتشوا منزلنا أكثر من مرّة، لم يعثروا على سلاح. كان والدك يخبّئ بندقيّته في حقل الزيتون. ذات مرّة عثروا على طلقات فارغة فحكموا على والدك بالسّجن خمس سنواتٍ.

كان بودّي أن أقفز من نافذة الحافلة فاحتضن النّاس وأُقبّلُ الأزهار والأشجار والأحجار والتّراب.

اجتزنا مدينة طولكرم، وبعد استراحة قصيرة توجّهنا إلى قلقيلية. كان الطّريق إليها مضمّخاً بعطر البرتقال واللّيمون. وعندما وصلنا تخوم البلدة، رأيت ابتسامة أمّي تتألّق أكثر فأكثر كانت تشتعلُ فرحاً كنجم يسامر حوريّات البحر.

وكانت عيناها مفعمتين بالعواطف المشبوبة، وبدت وكأنّها تكتم حبّاً عاصفاً يَمُورُ في داخلها. وبدأت تصف وتشير لكلّ شارع، لكلّ ساحةٍ، لكلّ مَعْلَمٍ من معالمها:

– هناك تقع المدرسة الابتدائية، وهناك بيادر البلدة، وهنا معصرة الزّيتون، وهنا مطحنة الحبوب، وذاك هو سوق البلدة، وهنا في هذه السّاحة يتجمّع النّاس في أفراحهم وأتراحهم وها هو مسجد البلدة بمئذنته القديمة الشّامخة. وهذا هو منزل محمّد العبيد مختار البلدة وهناك في الطّرف الغربيّ منازل أخوالكَ، أمّا هنا في الجهة الشّمالية فتتوضّع عائلة نزّال أمّا ذاك السّواد فهي بيّارات البلدة وحقولها التي اغتصبها اليهود.

حطّت بنا الحافلة في ساحة ترابيّة، حملنا أمتعتنا، قالت أمّي والشّوق يسابق خطوتها:

– لن نسير طويلاً..!

كانت قلقيلية ساحرةً كضحىً ربيعيّ، ناعمةً كالخيال، صافيةً كنبعٍ رقراقٍ رائعةً كنهرٍ دفوق.

نظراتي التي لا تكلّ تفتّش عن كلّ شيء، تتملّى كلّ شيء، مرّةً تصافحُ زرقة السّماء، ومرّةً تجوسُ الآفاقَ والجهات، وأخرى تتقرّى الوجوهَ والأبواب والنّوافذ والجدران والتّراب.

ما عدت أذكر عدد الّذين سلّموا علينا في الطّريق. ولم أعدْ أذكر ملامحَ النسّوة اللواتي عرفن أمّي.

– يا الله كم صَغُرَ العالم؟!!

بدأت المدينة تكبر وتكبر حتى غطّت العالم ببرّه وبحره وسمائه.

– يا الله..!

لمَ تبدو السّماء هنا أجمل، والتراب أحلى، والنسيمَ أشهى والناس أنبل، حتى بدا لي الماء أزكى وأطيب !!!؟ أهي رحلةٌ إلى الفردوس؟؟!! أم هي نوازع النّفس للأهل والتّراب والوطن؟؟!!! لست أدري!!!!

(٢)

– دونكَ البوابة الكبيرة. هي ذي دارنا.

قالت أمّي والفرح يكلّلُها ويحملها كما تحمل أكفُّ الأثير عصفوراً صغيراً.

طرقنا الباب بالمدقّة النّحاسيّة. لا أعرف كيف خرجت امرأة وصرخت مذهولة:

– أمّ فتحي..؟!

وتعانقنا طويلاً. ثمّ تدافعت نسوة الحيّ، واستمرّ العناق والضّحك والبكاء وهسيسُ القُبَلِ والأسئلة التي انهمرت كوابل المطر.

لم تكن الأسئلة معدّة مسبقاً، بل أملاها الشّوق والحنين وحرارة اللقاء.

دارنا كما وصفتها أمّي:

غرفتان في صدر الفناء، وغرفة ضيوف واسعة وطويلة، ويقابلها غرفة المعيشة، شجيرات من اللّيمون والبرتقال وعلى يمين المدخل شجرة خرّوب وارفة الظّلال، الجدران من الحجر الأبيض.

كم هي رائعة هذه الذّاكرة، ذاكرةُ المكان التي تتفرّد بها أمّي!!! كانت تصف البلدة والقرى المجاورة والأمكنة وكأنّها تستقرئ الأشياء بسرعة الحاسوب ودقّته.

- كم أغبطُك على هذه الذّاكرة المشبوبة بالشّوق والحنين!!

(٣)

شآبيب الضباب تتراقص فوق أشجار اللّيمون والبرتقال والزّيتون، والتي تبدو وكأنّها غابة داكنة، سوادٌ محاطٌ بسواد قاتل، قطرات النّدى المتناثرة على وجه الطّبيعة تبدو أسيرةً حزينة، لا فاصل بين النّاس وحقولهم وبيّاراتهم سوى هذا الشّريط الشّائك والجنود المدجّجين بالسّلاح.

وتنهض في خاطري خضرة الحقول المتاخمة للبلدة وأصوات الرّعاة الحثيث الذي يتمرّغ بندى الصّباح.

ليس هناك ما يعكّر صفو الهدوء والسّكينة، لكأنّ النّاس قبل حرب الـ ٦٧ ما زالت تجترّ آلامها وأحزانها، بعد أن تقوقعت وتقهقرت الجيوش العربيّة أمام سلاحف اليهود الصّهاينة في الجولة الأولى من حرب الـ ٤٨.

(٤)

في الغرفة التي أُعدّتْ لنا، وعلى الطّاولة التي احتشدت عليها أشياءُ كثيرة. كنت أراها كومة أحلام، وذكريات مرتعشة تستيقظ من دفاتر الأيام، تتسلّل شيئاً فشيئاً، تستحمّ في البحر وتغسل غبار سنين مضت، هكذا العمر يمضي كنهر تنخر ضفّتيه السّنون بباغته ارتعاش عند نهاية المصبّ، تغادره النّوارس إلى بعيد المدى. كان دفوقاً، وها هو يكاد ينضب، تختلج أنامله المرهقة، وتعتريه سِنَةٌ من الهذيان كلّما عاوده الخيال.

أمُّ الذّهب تلك الجارة القديمة الجديدة جاءت محمّلة بالدّهشة والشّوق، رأيتها نخلةً سامقةً ودوحة ظليلة، قطاةً اهتدت إلى سربها بعد طول ضياع، رأيت دموعاً وبسماتٍ وقبلات تنصهرُ في أتون اللّقاء الحميم، هذه المرأة يُعشِبُ ثغرها ورداً وضياءً، وتوجّج الألق العاطفي، ويسيل من فمها كلام كنبع رقراق، تفجّر ضرعاً هتوناً من بين الصّخور الحانية وتتشظّى جمرة لتشعل أطراف ليل بهيم، فيورق الفجر نرجساً وسوسناً ونبيذاً معتّقاً، ثم ينسكب الضّياء في وعاء من شفق رهيف، خضّب وجهه، ومضى يترعُ الرّحيق من زنبقة مرصّعة بالنّجوم.

هي امرأةٌ عاشقة بلا حدود، جاءت تحمل من الشّوق والحبّ ما عجزت عنه ليلى وعبلة وبثينة ولبنى.

- يا الله كم كنت أتمنى أن أكون شاعراً لأصوغ فيها قصائد عصماء!!!.

وتظلّ أمُّ الذّهب ألقاً يعبق بصدق المشاعر ونبل الأحاسيس.

وهناك على الطّرف الآخر من الشريط الشّائك، يجثم الوحشُ فاغراً شدقية. هو ليلٌ مرعب حالك، سرق النّدى والخبزَ والهواء، لوّن الشّمس بلون قاتم وخبّأ القمر في باطن المقابر.

(٥)

أنْفَذْتُ وصيّةَ والدي وأحضرت صكوكَ ملكية الأراضي من قلقيلية، التي خبّأها والدي عند أمّ الذّهب.

هذه المرأة التي ما زال صوتها العذب يتدفّق في مسمعي وفي روحي، لينساب دافئاً في ثنايا جسدي، تتدحرج كلماتها في أوردتي لتلامس شغاف القلب حيث أشعر بنشوة لا مثيل لها.

أرقب بشغف العاشق كلّ كلمةٍ تتناثر من شفتيها، وبتُّ أسيرَ الأحرف والكلمات، وكلّما ألمّ خيالها في ذاكرتي أرتعشُ، ويزْداد خفقان قلبي، ويعاودني الحنين الجارف إلى تلك الأرض التي تسكنني، وتلونُ روحي بأريجها السّاحر.

البيئة التي أغنت فكر وثقافة الحافظ ابن عساكر صاحب تاريخ دمشق

أعطى دمشق الكثير

فأعطته بدورها الكثير...

بقلم:
محمد عيد الخربوطلي

البيئة التي نشأ بها الحافظ ابن عساكر:

ولد الحافظ علي بن الحسن بن هبة الله (أبو القاسم) ثقة الدين المعروف بابن عساكر الدمشقي سنة ٤٩٩هـ/١١٠٥م، وتوفي سنة ٥٧١هـ/١١٧٥م، وكانت ولادته ووفاته بدمشق.

ولد في بيئة علم، فأبوه الحسن كان من أهل العلم محباً للعلماء، وكذلك أخوه الكبير صائن الدين هبة الله كان من أهل العلم والفتيا وحفاظ الحديث، كما كان عالماً بعلوم القرآن والنحو واللغة، أما جده لأمه أبو المفضل يحيى بن علي كان قاضياً، وخاله زين الدين كان قاضياً أيضاً ودرس بنظامية بغداد، ولم تكن أمه إلا دافعة له للمضي في طلب العلم فهي من عائلة علمية.

في هذه العائلة، وفي هذه البيئة العلمية ولد علي بن عساكر.

ولقد لعبت هذه الأسرة الدور الكبير في نشأته العلمية وتكوين معارفه، وترسيخ حبه للعلم والتحقيق والتدوين.

ومع كل ما لقيه من اهتمام الأسرة بالعلم، تلقى العلم صغيراً في حلقات الجامع الأموي بدمشق، حيث تلقى القرآن، وأحضر مجالس السماع، واستجاز له أهله كبار العلماء إبان طفولته، وكان يحضر مع أبيه وأخيه هذه المجالس، ثم أخذ هو يسمع بنفسه من أبيه والأكفاني وابن قبيس والسلمي وغيرهم من كبار علماء دمشق في ذلك الوقت.

بيئة دمشق العلمية:

لقد لعبت البيئة العلمية الدمشقية في إغناء ثقافة وفكر ابن عساكر كثيراً، ففي دمشق التي ولد فيها الحافظ ودفن فيها، كانت حياة العلماء ميسورة، قصدها العلماء وطلاب العلم

والزائرون من كل أنحاء البلاد، فوجدوا فيها كل أسباب الراحة، وتناولت أقلام المؤرخين كل شيء فيها حتى أنهارها ومتنزهاتها ومفاتنها، في زمن ابن عساكر كانت دمشق مركزاً هاماً من ينابيع المعرفة في الإسلام، خاصة في الحديث والتفسير والفقه وعلوم القرآن.

وفي زمن ابن عساكر بنى نور الدين داراً للحديث خصيصاً له، كما بنى عدة دور للقرآن وعشرات المدارس للمذاهب الفقهية، هذا غير مدارس الطب.

وقد ذخرت دمشق في ذلك العصر بأكابر العلماء والقراء والمحدثين والفقهاء، فقد وفرت لهم كل أسباب الراحة من أمكنة لإقامتهم، ورواتب تكفيهم.

كذلك كان لموقعها الجغرافي الهام بين الشرق والغرب أثر كبير في الحركة العلمية، فقد كانت ملتقى للقوافل، ومنتجعاً للحجيج في رحلتهم الطويلة، ويضاف إلى ذلك كله حسن معاملة أهلها للوافدين إليها من زوار وحجيج وعطفهم على الغرباء، وحدبهم على العلماء وطالبي العلم، لهذا كان كثير من العلماء يتخلفون عن الإستمرار في رحلاتهم ليقيموا فيها عاماً أو أكثر يسمعون ويُسمعون، ويعلمون ويتعلمون، ثم بعد ذلك يكملون سفرهم إلى حيث يريدون.

لهذا أخذت دمشق أهمية عظيمة في عصر الحافظ ابن عساكر، وأصبحت مركزاً لنشاط هام من كافة الجوانب، لذلك كانت دمشق مزدحمة بالسكان، لرفاهية العيش فيها، ولكونها قبلة العلماء وطلاب العلم.

يقول ابن جبير: "إن البلد يحتوي من الخلق ما تحتويه ثلاث مدن"، هذا بعدما خسرت دمشق أكثر من نصف سكانها في أواخر أيام العبيديين، إذ كان القرن الخامس من أسوأ ما عرفته دمشق، بسبب المظالم التي لاقوها على يد الحكام وجورهم والتنكيل الذي عرفوه في أواخر عهدهم، فابن جبير قال ذلك في القرن السادس بعد أن مرت دمشق بمراحل كثيرة من التطور. في عصر ابن عساكر صارت دمشق بفضل مئات المنشآت المدنية والدينية والدفاعية من أجمل مدن العالم الإسلامي، كما وصفها المؤرخون والجغرافيون والعمرانيون.

فقد حفلت المدينة بمئات المساجد بمآذنها الشهيرة والرشيقة، وقبابها المحمولة على رقبات مضلعة، ومسجدها الجامع الرائع بمآذنه الشامخة وقباب مدرسة نور الدين ومارستانه المقرنصة من الخارج مخروطية على مثال غير مألوف من مدينة دمشق.

وقد ذكر ابن عساكر في تاريخه أن مساجد مدينة دمشق بلغت ٢٤٢ مسجداً، لم يبق منها إلى يومنا هذا إلا سبعين مسجداً فقط، وإذا سألنا أين ذهبت..؟ لقلنا بأنها هجرت ودثرت وأكثرها اختلس وصار دوراً للسكن، كما اختلست معظم مدارس دمشق.

البيئة السياسية

لعبت البيئة السياسية دوراً كبيراً في حياة ابن عساكر العلمية، كما وضعت فرشاً ملائماً لولادة تاريخ دمشق كما أراده.

فقد ولد الحافظ في آخر سنة من القرن الخامس الهجري، وعاش بقية حياته، وهي سبعون عاماً في القرن السادس، عاصر خلال هذه الفترة ثلاث دول حكمت مدينة دمشق، وهي الدولة السلجوقية والأتابكية النورية والناصرية الصلاحية التي عرفت باسم الدولة الأيوبية.

١- الدولة السلجوقية:

بعدما انتقلت عاصمة الدولة العربية الإسلامية من دمشق بسقوط الدولة الأموية إلى بغداد العباسيين، صارت دمشق ولاية تابعة لها، ثم للقاهرة عاصمة الفاطميين، ثم عادت للخلافة العباسية مرة أخرى.

ولما ولد الحافظ ابن عساكر في أواخر القرن الخامس، كانت السلطة في دمشق بأيدي الأتراك السلاجقة، الذين حكموها مستقلين عن الحكم العباسي، وكانوا قد استقروا بدمشق سنة ٤٦٨هـ وبعدما حاصروها ست سنوات، قضوا خلالها على الوجود الفاطمي بدمشق.

وقد حكم الأمراء السلاجقة وأتابكتهم (طغتكين) وذريته دمشق مدة ثمانين عاماً، وعاصرهم ابن عساكر مدة خمسين عاماً، حتى سقطت سلطتهم عام ٥٤٩هـ، باستلام نور الدين للسلطة في دمشق، وقد تعلق أهل دمشق بالسلاجقة كثيراً لحرصهم على الجهاد في سبيل الله، في حروبهم ضد الروم البيزنطيين والفرنج الصليبيين، ولا سيما حين هاجم الصليبيون دمشق سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨، فقد هب السلاجقة ومن كان معهم من أهالي دمشق والغوطتين للدفاع عنها.

ويعد من مآثرهم إعادة بناء الجامع الأموي، ولم ينس أهل دمشق صنيعهم هذا فسجلوه لهم.

جاء الأتابكة بعد السلاجقة وفي عهدهم استمر تجديد الجامع الأموي، خاصة أيام حكم شمس الملوك دقاق الشجاع المحب للعلم والبناء.

استلم طغتكين حكم دمشق في سنة ٤٩٨هـ واستمر حكمه لغاية سنة ٥٢٢هـ، وولد ابن عساكر سنة ٤٩٩هـ، أي في العام التالي لحكمه، وبعد وفاة طغتكين حكم ابنه وأحفاده حتى سنة ٥٤٩هـ، حيث أنهى نور الدين بن محمود زنكي حكمهم، الذي بدأ بالتلاشي بسبب إهمالهم شؤون الرعية، وتخاذلهم أمام الأعداء الصليبيين.

٢- الدولة الأتابكية النورية:

كان جد نور الدين (آق سنقر) الملقب بقسيم الدولة أتابكاً للسلطان ملك شاه بن ألب أرسلان السلجوقي، وأصبح والده عماد الدين والياً على الموصل من قبل السلاجقة وبموافقة الخليفة العباسي، وهو أحد المماليك الذين ساعدهم الحظ فأصبحوا أمراء وملوكاً، وأسسوا الدولة العظيمة، وبعد أن فتح عماد الدين حلب سنة ٥٢٢هـ، وضم إليها حمص وحماه، شن غارة على الرها، أحصن معقل للصليبيين، فاستولى عليها سنة ٥٣٩هـ، وحصن بذلك وادي الفرات من خطر الصليبيين، وحاول فتح دمشق مرتين فلم يتيسر له ذلك، وكانت وفاته أمام قلعة جعبر أثناء حصاره لها.

خلفه ابنه نور الدين على الحكم في الموصل وحلب وما تبعها، وفتح دمشق سنة ٥٤٩هـ، فانقرضت الدولة السلجوقية، وظهرت الدولة النورية.

صار نور الدين ملكاً على الشام ولقب بالملك العادل، واستمرت دولته عشرين عاماً، حيث توفي سنة ٥٦٩هـ، ودفن في قلعة دمشق، ثم نقل إلى تربة قرب مدرسة بناها في سوق الخياطين.

لما تولى نور الدين الحكم كان حافظ الشام ابن عساكر في الخمسين من عمره، وعاصر دولته حتى نهايتها، وكان لنور الدين الفضل الكبير في حثه على إتمام كتابه العظيم، كما بنى له دارا للحديث، عرفت بدار الحديث النورية، وماتزال عامرة إلى اليوم.

وقد خصه ابن عساكر في تاريخه بترجمة مطولة، بين فيها مناقبه، كما أشاد بعدله وتقواه، وذكر حضه على الجهاد وغير ذلك.

لقد اقترن اسم نور الدين ببناء المدارس والمساجد ودور القرآن ودور الحديث، والمشافي والخانات، وما يزال البيمارستان النوري ماثلاً إلى اليوم دالاً على أعماله.

٣- الدولة الأيوبية:

شهد ابن عساكر في آخر حياته دولة ثالثة، وهي الدولة الأيوبية، التي أسسها السلطان صلاح الدين الأيوبي الدويني، وأصله من دولة دوين الواقعة في آخر حدود آذربيجان بالقرب من تفليس، وقد قال ابن كثير (أصل هذه الطائفة من الأكراد) ولكن الأيوبيين ينكرون هذه النسبة ويقولون (إنما نحن عرب نزلنا عند الأكراد وتزوجنا منهم)، وقد علق عبد القادر يدران على هذا الكلام فقال:

"يمكن أن يكون هذا صحيحاً، لأن العرب تفرقت في الأقطار بعد الفتح الإسلامي"

وبدأت علاقة الحافظ أبي القاسم ابن عساكر بصلاح الدين قبل وفاته بعام واحد من حكمه، ولم يذكره في تاريخه لدمشق، لكن المؤرخين أجمعوا على أنه كان يحضر مجالس صلاح الدين، وحظي باحترامه وكان يستمع إليه كما كان سلفه نور الدين، وقد بلغ من مقامه أنه قرّع صلاح الدين علناً، ووصف مجلسه بأنه مجلس سوقة لا يستمع فيه إلى قائل ولا يرد جواب متكلم، وعند وفاة ابن عساكر حرص صلاح الدين على أن يحضر الصلاة عليه.

الرحلة إلى بغداد:

كانت بغداد في مطلع القرن السادس الهجري من أعظم المراكز العلمية العربية الإسلامية، ولاسيما في العلوم الدينية، كالحديث والفقه وتوابعها كالتاريخ والأدب واللغة، ولا أدل على مكانتها من ذلك العدد الضخم من متعيني الرواة الذين عاشوا فيها، أو قصدوها من شتى بقاع العالم الإسلامي.

بدأت المدارس تنتشر في هذه المدينة منذ منتصف القرن الخامس الهجري انتشاراً كبيراً، متوجة بإنشاء المدرسة النظامية ٤٥٩هـ، والتي أصبحت مناراً للعلم ومقصداً للطلبة.

وكانت بغداد تجذب العلماء إليها لأنها دار العلم، وتقع على طريق الحجاج القادمين من مشرق العالم الإسلامي الزاخر آنذاك بطائفة عظيمة من مشاهير العلماء، فكانوا ينتهزون هذه الفرصة عند المرور ببغداد للسماع أو التحديث بها، فيوفر كل ذلك على الطالب القادم إليها تعباً في لقاء هؤلاء الشيوخ.

وقد أسهم المحدثون المسلمون خلال تلك العصور في الحفاظ على الوحدة الثقافية بين أرجاء الوطن العربي والعالم الإسلامي برحلاتهم الكثيرة الطويلة، وتنقلهم بين مدنه وأقاليمه، ونشر راية اللغة العربية في أرجائه، وكان المسلمون يعتبرون العالم الإسلامي كله موطناً وداراً لهم، وبذلك توطدت الصلات بين أجزائه بالرغم من اختلاف حكامه.

وكانت العلاقات الثقافية بين دمشق وبغداد قائمة على قدم وساق منذ أقدم العصور، لكنها توطدت بشكل أكبر خلال هذه الفترة، فقد رحل عالم بغداد ومؤرخها الخطيب البغدادي مثلاً إلى دمشق أكثر من مرة، ومكث فيها فترة طويلة لم يمكثها في مدينة أخرى سوى بغداد، وكان يعقد مجلسه في الجامع الأموي بدمشق يحدث بمصنفاته ومصنفات غيره، رغم سيطرة الفاطميين عليها وعدم ارتياحهم من نشاطه العلمي.

وكثيراً ما كان الدماشقة يرحلون إلى بغداد، بل واستوطنها بعضهم، مثل الحافظ أبي القاسم ابن السمرقندي (٤٥٤ - ٥٣٦هـ) رحل مع أبيه من دمشق إلى بغداد واستوطنها، وصار بعد ذلك من أعاظم علماء بغداد في عصره.

وكانت علاقة الحافظ أبي القاسم ببغداد قوية جداً، فقد رحل إليها جده لأمه وخالاه وأخوه الصائن هبة الله.

تحرك شوق الحافظ أبي القاسم للرحلة إلى البلدان الأخرى ولا سيما بغداد، لكن أهله كما يبدو لم يمكنوه من ذلك أول الأمر، فلما بلغ الحادية والعشرين من عمره سمحت له أمه بالرحلة إلى بغداد، بعد وفاة أبيه سنة ٥١٩هـ، واشترطت عليه ألا يرحل إلى مشرق العالم الإسلامي، ولم يكن الحافظ ابناً عاقاً يخالف إرادة أمه، وكان في أشد الشوق للرحلة إلى بغداد، ووصلها سنة ٥٢٠هـ، وفي نفس السنة توجه إلى مكة لأداء فريضة الحج وزيارة المدينة، وفي هاتين المدينتين كانت له لقاءات وسماعات، وكذلك في الطائف ومنى، ثم عاد إلى بغداد ليتابع دروسه في النظامية وسماعاته على شيوخ بغداد.

وفي سنة ٥٢٥هـ عاد إلى دمشق ومكث فيها أربع سنوات، بدأ خلالها في تصنيف تأريخه لدمشق قبل أن تبدأ رحلته الثانية.

الرحلة الثانية:

في سنة ٥٢٩هـ غادر دمشق ثانية ووصل إلى نيسابور، ومنها ارتحل إلى باقي بلاد المشرق، يقول السبكي: "وارتحل إلى بلاد العجم، فسمع بأصبهان ونيسابور وأبيورد.."، وعدد باقي المناطق التي سمع بها وهي كثيرة، وقد أنهى هذه الرحلة في بغداد ثم عاد إلى دمشق سنة ٥٣٣هـ، وفي رحلته الثانية كانت شهرته قد طبقت الآفاق، وتناقل العلماء وطلاب العلم أخبار ذكائه وسعة حفظه.

دور علماء بغداد في تكوينه الثقافي:

كان ابن عساكر من المعجبين بالحسن بن سلمان الأصبهاني (توفي ٥٢٥هـ) نزيل بغداد، الذي ولي التدريس بالنظامية في أول رحلة ابن عساكر إلى بغداد، وقال عنه:

"ولي تدريس المدرسة النظامية ببغداد إذ كنت بها، وكان ممن يملأ العين جمالاً، والأذن بياناً، ويربي على أقرانه في النظر لأنه كان أفصحهم لساناً، كذلك تأثر بأبي إسماعيل النيسابوري (٤٥١ - ٥٣٣هـ) الذي كان شيخاً ذا رأي وعقل وتدبير وفضل وافر".

وقد قال عنه ابن عساكر: "كان إماماً في الأصول والفقه، حسن النظر مقدماً في التذكير....".

ومع ذلك... انصبت عنايته ببغداد وبغيرها على سماع الحديث، فانطلق حتى طغى على كل تفكيره، واستغرق كل حياته بعد ذلك، فسمع مالا يحصى كثرة من الكتب والأجزاء، ولقي ببغداد مئات عديدة من الشيوخ والشيخات، وأصيب بالشره في سماع الحديث وقراءته، حتى أنه سمع من أناس غير مشهورين كغيرهم.

وقد أكثر من الشيوخ الذين أخذ عنهم ببغداد وفاقوا عددهم في أية مدينة أخرى، ذكرهم في معجم شيوخه، وهم مئات عديدة، كان أهمهم ببغداد مسند العراق أبو القاسم الهمذاني (٤٣٢ - ٥٢٥هـ) الذي كان من الشيوخ الثقات الواسعي الرواية، وكان متفرداً برواية مسند الإمام أحمد وأحاديث أبي بكر الشافعي واليشكريات.

كذلك تأثر بسماعه على أبي العز أحمد بن عبيد الله ابن كادش العكبري البغدادي (٤٣٦ -

٥٢٦هـ) الذي سمع تاريخ بغداد من مؤلفه الخطيب ورواه عنه.

كذلك سمع ببغداد من شيخات كثيرات التقاهن وروى عنهن، وكانت أولاهن فاطمة بنت عبد القادر الواعظة المباركة توفيت سنة (٥٢٠هـ) ويقول الذهبي: "وهي أقدم شيخ توفي له ببغداد"

وفاطمة بنت الحسين الرازي العالمة المعروفة ببنت حمزة توفيت سنة ٥٢١هـ، وفاطمة بنت أبي الحسن علي بن الحسين العكبرية توفيت سنة ٥٢٦هـ، وكريمة بنت الحافظ أبي بكر محمد بن أحمد ابن الخاضبة توفيت سنة ٥٢٧هـ، روت الحديث عن أبي الحسين ابن النقور، وقال عنها ابن السمعاني: "رأيت نسخة لتاريخ بغداد كاملة بخطها"، وغيرهن كثيرات.

أثر بغداد في تكوينه الفكري:

كان أبو القاسم طيلة مقامه ببغداد لا يكل من السماع والتحصيل ولا ينقطع عنهما، وكان رفقته في الطلب يدركون هذا الحماس في الدراسة والتحصيل، فقد قال عنه رفيقه ابن صصرى توفي سنة ٥٨٦هـ: "ما كنا نسمي الشيخ أبا القاسم ببغداد إلا شعلة نار من توقده وذكائه وحسن إدراكه". فجمع من العلم ما لم يجمعه غيره، ورجع بعلم جم وسماعات كثيرة، ولا أدل على ضخامة زاده من بغداد تلك الروايات الكثيرة التي نقلها عنهم في كتبه، ففي المجلدة الأولى من تاريخ دمشق نجده يورد أكثر من مئة وعشرة نصوص عن أبي القاسم ابن السمرقندي، وأكثر من خمسين نصا عن ابن الحصين، وقرابة الأربعين نصا عن ابن البناء، وثلاثين نصاً عن محمد بن عبد الباقي الأنصاري... وهكذا.

وصل ابن عساكر إلى بغداد وهو في مطلع شبابه، في الحادية والعشرين من عمره وبقي فيها قرابة الخمس سنوات لم ينقطع فيها عن التحصيل والدرس، وهذه الفترة أثرت تأثيراً عظيماً في تكوينه الفكري، وطبعته بطابع أهل بغداد المحبين للحديث وروايته ودراسته حبا شغلهم عن كثير من العلوم الأخرى، وفي بغداد كانت المشارب التي أخذ عنها أبو القاسم متنوعة التنوع كله، ففي شيوخه أشاعرة وسلفية منهم المرن ومنهم المتعصب لعقيدته، وهو لم يترك أحداً استطاع مجالسته والسماع عليه والأخذ عنه، فعلى الرغم من أشعريته التي ورثها عن عائلته، ودفاعه عن الأشاعرة، والذب عنهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا، فإنه ما كان ليحجم عن الأخذ من شيوخ كانوا يعادون الأشاعرة، فقد أخذ عن القاضي أبي الحسين الحنبلي المتوفى سنة ٥٢٦هـ صاحب طبقات الحنابلة، وهو الذي قال فيه الحافظ السلفي: "كان أبو الحسين متعصباً لمذهبه وكان كثيراً ما يتكلم في الأشاعرة ويقول فيهم وبسمعتهم".

وبسبب اتصاله بشيوخ من مشارب مذهبية وعقائدية متنوعة، وحبه واحترامه لهم، نشأ على غاية من النزاهة عن التعصب الذي عرف به كثير من الأشاعرة وخصومهم، ولم يكن تحقيق تلك النزاهة والمرونة في تلك الأعصر من الأمور الهينة، والبيئة الدمشقية والبغدادية آنذاك مشحونة بها.

وتتصل قيمة التاريخ عند الحافظ ابن عساكر اتصالاً وثيقاً بالحديث، وهو أمر يعكس مفهومه وفلسفته في الدراسة والعطاء، فالتاريخ عنده ليس أكثر من معين لمعرفة صحيح الحديث من سقيمه، في أغلب الأحيان، لذلك عني بالتراجم عناية فائقة، وآثر المحدثين منهم على غيرهم في كتبه، خاصة في تاريخه العظيم لمدينة دمشق.

وقد استعمل الحافظ مناهج البحث عند المحدثين في عرض الروايات التاريخية، فاستعمل الإسناد بشكل كبير في كتبه ولا سيما تاريخ دمشق، ويعد استعمال الأسانيد عند أهل الحديث من أدق طرق ذكر المصادر.

ويتضح أثر الحديث في صياغته للترجمة ونوعية المادة التي يوردها فيها، من اسم ونسبة ومولد ووفاة، وشيوخ وتلاميذ، وتقويم وأحكام، وهو الإطار الذي وضعه المحدثون، وهو أحدهم، لعناصر الترجمة التي انتقلت منهم إلى غيرهم من المعنيين بالتراجم.

ابن عساكر بين تاريخ بغداد وتاريخ دمشق:

يذكر ابن خلكان: "أن ابن عساكر ألف تاريخه لدمشق على نسق تاريخ بغداد للخطيب"، فهل تأثر ابن عساكر في تاريخه بتاريخ بغداد..؟ وهذا سؤال اجتنب كثير من الباحثين الخوض فيه، ورفض بعضهم عقد مقارنة بين الكتابين.

نعتقد أن فكرة عمل تاريخ لدمشق كانت في خاطر ابن عساكر منذ أن سمع بعضاً منه على شيوخه الدمشقيين، حتى إذا كانت رحلته الأولى إلى بغداد سمع التاريخ كله على شيوخه البغداديين، وقلما نراه يذكر في روايته من تاريخ بغداد شيخاً واحداً، والمألوف روايته من هذا التاريخ أن يذكر الشيخ الدمشقي، ثم يذكر الشيخ البغدادي، لأن سماعه من الشيخ الدمشقي سبق سماعه من الشيخ البغدادي.

والمتتبع لنقول ابن عساكر من تاريخ بغداد يلاحظ في أكثر الأحيان هذه الازدواجية في الرواية، مما يدلنا على اهتمامه بتاريخ بغداد اهتماماً كبيراً، وحرصه على سماع أخباره على أكثر من شيخ، وكيف لا وهو يريد أن يصنع تاريخاً لدمشق، قدر له أن يكون تاريخ بغداد رافداً من روافده الكثيرة.

وكتاب تاريخ بغداد كان كتاباً مرموقاً عند المحدثين والمعنيين بالرواية، فعلى الرغم من ضخامته، كان يُروى في المجالس، ويسمعه الطلبة على الشيوخ في كثير من البلدان.

ثم إن الهيكل العام للكتابين متشابه، فهو يبدأ بمقدمة خططية ويتناول بعد ذلك تراجم أهل المدينة، ومن وردها من أعلام الناس أو حل بها.

ثم إن ابن عساكر ألف كتابه بعد الخطيب، ولا ريب أنه استفاد بعض طريقته في التنظيم وحسنها بما يتلاءم وتكوينه الفكري وذوقه التاريخي المتصل بالحديث والمحدثين.

وقد أجمع كثير من الباحثين حول هذا الموضوع في عدة نقاط أهمها:

- أن ابن عساكر فكر بوضع تاريخ لدمشق قبل رحلته الأولى إلى بغداد، منذ اطلاعه على تاريخ بغداد، وسماعه على شيوخه الدمشقيين.

- ازدادت هذه الفكرة استقراراً في نفسه بعد أن رحل إلى العراق، وأتم سماع تاريخ بغداد، ولعله بدأ منذ ذلك الوقت بجمع أخباره، وتسويد بطاقات المترجمين، كما بدأ بسماع المصنفات التي سيبني عليها تاريخه، فكان يجمع أخبار الرجال مراعياً في ترتيب أسمائهم التسلسل الهجائي، ويضم الجذاذة إلى الجذاذة في الترجمة الواحدة، بموجب هذا التنظيم الذي سار عليه في التاريخ كله.

- حين قام برحلته الثانية إلى نيسابور، كانت خطة العمل في التاريخ قد دخلت مرحلة التنفيذ الفعلي، يؤكد ذلك قول معاصره السمعاني الذي لقيه في نيسابور سنة ٥٢٩هـ: "سمعت معجمه والمجالسة

للدينوري، وكان قد شرع في التاريخ الكبير لدمشق"

ولا ننسى أنه أمضى أربع سنوات في دمشق بين رحلتيه، فليس مستبعداً أن يكون قضى قسماً كبيراً من وقته في هذه الفترة في تأليف التاريخ، ساعده على ذلك المجموعة الكبيرة من الكتب المسموعة التي عاد بها من بغداد.

- حين عاد ابن عساكر من رحلته الثانية إلى دمشق سنة ٥٣٣هـ، وتصدر للتحديث، نشط للعمل في التاريخ، ولكن عوامل كثيرة تدخلت مع الزمان لتصرفه عن إتمام عمله الضخم، فعاقت عن إنجازه وإتمامه عوائق الأيام، من شدة الخاطر، وكلال الناظر، وتعاقب الآلام.

- من حسن حظ هذا التاريخ أن يتناهى إلى مسامع الملك العادل نور الدين نبأ تأليفه وجمعه، فيبارك العمل ويشجعه، ويطلب من ابن عساكر الإسراع فيه، هنا تلاقت الدوافع النفسية القديمة بالعوامل السياسية، فأخذ يعمل جاهداً، خشية أن تدركه المنية قبل إتمام العمل.

- سار ابن عساكر في تاريخه لدمشق على نهج تاريخ بغداد، ولا يعني هذا أنه لم يأت بجديد، أو أنه كان محاكياً ومقلداً للخطيب لا أكثر، وفي الحقيقة أنه حتى الخطيب نفسه لم يكن مبتكراً في نهجه، فهناك من سبقه في ذلك النهج، مثل القشيري في تاريخه للرقة وغيره.

والصواب أن نقول إن الطريقة التي اتبعها الحافظان تتفق مع منهج أهل الحديث عموماً، لكن تاريخ دمشق جاء أشمل وأوسع، فقد وصفه السبكي بأنه: "أبان فيه عما لم يكتمه غيره، وإنما عجز عنه"، ووصفه ابن كثير بقوله أنه: "ندر على من تقدمه من المؤرخين، وأتعب من يأتي بعده من المتأخرين، فحاز فيه قصب السبق، ومن نظر فيه وتأمله، رأى ما وضعه فيه وأصّله، وحكم بأنه فريد أهله في التواريخ، وأنه الذروة العليا في التاريخ"، وإن وصفه ابن خلكان بأنه جاء على نسق تاريخ بغداد، فقد اعترف بأن ابن عساكر في تاريخه أتى فيه بالعجائب.

ولا بد أن نشير إلى مسألة مهمة وهي أنه من الفوائد التي جمعها ابن عساكر في تاريخه، أنه اعتمد في كتابته على مصادر اندثرت إلى الأبد، وبقي ما نقله ابن عساكر في تاريخه عنها.

وأخيراً لم تكن قصة التاريخ مع الحافظ قصة سنوات معدودات، لكنها كانت قصة عمره كله، كان الباعث على تأليف التاريخ نفس جبارة قبل كل شيء، لكن المهمة ضعفت في كهولته وكلت عزيمته في شيخوخته، فجاء نور الدين مجدداً للهمة، ومقوياً للعزيمة، فكان هذا العمل الجبار الذي صب فيه ابن عساكر خلاصة عقول خمسة قرون من عمر الحضارة العربية والإسلامية.

عطاء ابن عساكر وأثره على بيئته:

بدأ ابن عساكر بالعطاء في بغداد قبل دمشق، فقد عرفوا أنه انتهت إليه معرفة المشايخ ومقدار ما سمعوا والإجازات لكثرة دربته على ذلك، ونظراً للمكانة المرموقة التي احتلها ابن عساكر ببغداد، فإنه كان يُسأل عن الرواة من حيث الجرح والتعديل، فتؤخذ أقواله فيهم، وتعتبر عندهم أقصى حدود الاعتبار.

لذلك أعجبوا به كثيراً وقالوا: "قدم علينا من دمشق ثلاثة، ما رأينا مثلهم، يوسف الدمشقي والصائن هبة الله وأخوه أبو القاسم ابن عساكر، فكان في بغداد يأخذ ويعطي، ويتعلم ويعلم في نفس الوقت.

وبعد رجوعه إلى دمشق أقام علاقات وطيدة مع كثير من العلماء خاصة البغداديين، فبقي تبادل المعلومات العلمية بينهم قائماً، كما كان يحرص على لقائهم إذا قدموا دمشق فيسمع عليهم ويذاكرهم، أو يسمعون عليه ويذاكرونه، وكان بيته معموراً بالعلم، فكل من فيه بين حافظ ومحدث، لقد استطاعت شخصيته القوية، وروحه السمحة أن تفعل في نفوس أبنائه وزوجته الشيء الكثير، ولعل نفسه الكريمة، وأخلاقه الحميدة، وحسن سياسته وتدبيره، خلقت من أفراد هذه الأسرة الشخصيات التي يريد، كان ابنه القاسم بن علي حافظاً سار على خطوات أبيه، وأتم عمله في التاريخ وبيضه وسمعه على أبيه ثم أقرأه، وكانت زوجته عائشة بنت علي بن الخضر السلمية تهتم بالحديث، وسمعته من نساء مختصات في الحديث، وأسمعته لأبنائها، كما سمعوه من أبيهم، وابنه أبو الفتح الحسن سمع على والده كما سمع عمه الفقيه الصائن.

وظهر أثره في دمشق وغيرها، عندما تصدر لتدريس الحديث وروايته وتصنيفه، خاصة عندما بنى له نور الدين دار الحديث بدمشق، حيث جاءه طلاب العلم من كل البلدان، فتعلموا وعادوا إلى بلادهم ينشرون ويعلمون ما تعلموه منه، وكذلك مصنفاته الكثيرة التي ذكر منها ياقوت في معجمه حوالي الثمانين مؤلفاً، وأوصلها بعضهم إلى ثلاثمئة، أما مجالس الإملاء التي بلغت المئات وكان يعقدها في الجامع الأموي، وفي كثير من البلدان والقرى الدمشقية، فقد أتت أكلها، فنسخها من حضرها وانتشرت بين أهل العلم في كل البلاد، وما زال بعضها محفوظاً في المكتبات بخط تلاميذه.

وحينما كتب تاريخ مدينة دمشق، لم يكن يتصور في منتهى ظنونه أنه ربط اسمه بدمشق، وربط اسم دمشق باسمه على الدهر، فهما على التلازم بعد ذلك أبداً... فلا يذكر تاريخ دمشق إلا ويذكر اسم ابن عساكر معه، ولا يذكر ابن عساكر إلا وتذكر دمشق معه، لقد أعطى دمشق الكثير، فأعطته بدورها الكثير... الكثير.

وإلى اليوم يأتي العلماء والمؤرخون والمحدثون والباحثون، فإما أن يختصروه، أو يأخذوا منه عنواناً ويوسعوه شرحاً، أو يقوموا بدراسات عديدة عنه، فقد صار تاريخه مدرسة ينهل منها كل عالم وباحث ومؤرخ.

رحم الله ابن عساكر، الذي كانت حياته ذات لون واحد إذا قسناها بحياة غيره ممن يبحثون عن اللذة والمتعة، فقد قصرها على التحصيل والدرس، ومن ثم التصنيف والتأليف، وكانت ذات جوانب متعددة، إذا سبرنا عمقها بالعلم والمعرفة، فقد قرأ واطلع على ما ضمته المكتبة العربية، قبل أن يكتب على معظمها التلف والضياع والتشرد.

لقد مات ابن عساكر بعد أن ترك في الأرض دوياً هائلاً، وخلف للأجيال تراثاً ضخماً، بصبره وذكائه وانقطاعه عن الدنيا ومباهجها، الدنيا التي أعرض عنها فسعت نحوه.

رحمه الله فقد كان في زمن كل ما فيه كان حافزاً على تفتح العبقرية ونموها ورعايتها، كانت هناك الموهبة الفردية، والدوافع الذاتية، فصقلتها البيئة ونمتها وشملتها السلطة السياسية بعطفها وتشجيعها، فكان ذلك الممكن الذي يشبه المستحيل حين يقاس بساعات عمر معدودة، ويد واحدة لم تكن عالة على غيرها فيما جمعت ونسقت وبوبت ورتبت.



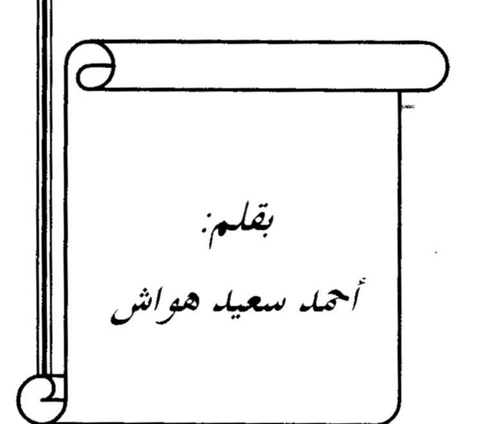

سماء دمشق..

شعر: الكسندرو أندريتسويو - روماني

سماء دمشق المفتوحة لنظراتنا
تمنحنا، وتمنح لوقتنا اللّون الأزرق الصّافي
المدينة، مثل العناصر الزّرقاء
تنشر في الصّباح ضواحيها الزُّرق
حتى الجبال الحمراء التي تحيط بالمدينة
تغدو زرقاء
على سطح الأرض أشجار الصنوبر الصغيرة
تحلم برعشات الغابات
في أيامها القادمة
أن أدعو الظلّ الذهبيّ لجبران خليل جبران
كي يقودني عبر دمشق
ويمنحني كنوز الماضي، مع صوته الخالد.
لنمتّع أنظارنا بمرأى دمشق
من قمّة قاسيون حتى مئذنة الجامع الأمويّ
لنبارك الأرض في العيون الكبيرة
وفي نساء المستقبل
إنّ تيارات الثورة النقية تأتي إلينا
وتمضي بحرارتها عبرنا
أحلامنا تصعد على درجات السماء الزرقاء
في كثافة كبيرة، وحرارةٍ أكبر
نتنزّه حتى هبوط المساء
حيث يمحو الظلّ أفق الضياء
ويضيء القمر سواره، وهو يمضي ببطء
كما يمضي البدوي
والصمت يستولي على الأفق
والضجّة تتلاشى كالموجة
نفسي الآن زخارف عربية
فيها تتبلور دمشق
في كريستالٍ أزرق.




الشاعر محمد ماجد الخطاب و عناق المطر



بقلم:
أحمد سعيد هواش

ولد الشاعر محمد ماجد الخطاب في قرية طيبة الإمام – محافظة حماة – عام ١٩٥٨، وتلقى تعليمه فيها، ثم تابع تحصيله الجامعي في كلية الحقوق بجامعة دمشق وتخرج منها حاملاً شهادة في الحقوق.

والشاعر محمد ماجد الخطاب عضو في اتحاد الكتاب العرب (جمعية الشعر) وعضو في مكتب فرع الاتحاد بحماة.

وهو شاعر متمكن من نظم القريض بشكليه الخليلي وشعر التفعيلة أيضاً، وينشر شعره في الدوريات السورية والعربية.

وقد صدرت للشاعر محمد ماجد الخطاب المجموعات الشعرية التالية:

١- تداعيات على بوابة الوطن ١٩٩٦.

٢- الغربة في الزمن القارس ١٩٩٧.

٣- كل هذا الجمال ٢٠٠٠.

٤- رسائل غاضبة ٢٠٠٣.

٥- عناق المطر ٢٠٠٩.

وهذه المجموعة الشعرية (عناق المطر) صدرت عن دار الينابيع بدمشق، وقد جاءت في مائتي وسبعة وثلاثين صفحة من القطع المتوسط، كما حوت أكثر من خمسين قصيدة متنوعة المواضيع والصيغ، وإن دلت على شيء فإنها تدل على شاعرية الشاعر محمد ماجد الخطاب وتمكنه من نظم القصيد.

وقد وضع الشاعر عنواناً معبراً لهذه المجموعة الشعرية الأخيرة، وهي بعنوانها الرمزي هذا الدال على الخير والخصب والأمل، استمده الشاعر من بيئته الريفية التي تبتهل صباح مساء لله تعالى بأن تهب السماء الأرض العطشى الماء

الذي ينبت الكلأ والزرع وينشر الخصب والخير في الربوع والديار.. في وقت عز فيه المطر..

ونستطيع القول بأن مجموعة الشاعر محمد ماجد الخطاب ضمت بين دفتيها ثلاثة مواضيع رئيسة هي: الهم الوطني والقومي، وشعر الأخوانيات، والشعر الغزلي.

ويأتي من أوليات قصائد الهم القومي قصيدة (لبغداد.. وبقايا من شهرزاد).

لقد فجعت الأمة العربية بنكبة كبيرة بسقوط بغداد – مدينة السلام – عام ٢٠٠٣، بيد أعداء السلام، فسببت آلاماً عميقة في نفوس أبناء الأمة العربية.

ومن أجدر من الشعراء بتلمس هذه الآلام في النفوس والمشاعر، ها هو الشاعر محمد ماجد الخطاب يبث أشجانه بشعرٍ حزينٍ مؤثرٍ، إذ قال:

ليس عندي للدمع شيء يزاد
فاغفري لي بالله يا (بغداد)
أنا جرحٌ ينزُّ في كل قلبٍ
وبلادٌ تقاسمتها البلاد

لقد داهمت (بغداد) جيوش الولايات المتحدة الأمريكية المعتدية وما تبعها من جيوش للدول المعتدية التي تسير بركابها مثل دول بريطانيا واستراليا وغيرهما، فخلَّفت الدمار والقتل والتشريد للسكان العرب الآمنين، إنها لفاجعة كبيرة لا يمكن التعبير عنها، فهي فوق تصور الشعر والشعراء، فقال:

أيُّ معنى للشعر.. كل نشيد
نَزْفُ جرحٍ.. وكل بيت حداد

وقد كتب الشاعر محمد ماجد الخطاب قصيدته هذه بمداد الدم، وهو يطلب السماح من (بغداد) إذا تعثر لسانه، وكبا بيانه بالتعبير عن آلامه الدفينة، فقال:

سامحيني بغداد يخجل مني
حين أتلو الحروف حتى الجماد
سامحيني إذا تلعثم صوتي
في شفاهي.. إن الحروف اتّقاد
سامحيني ولستُ أسمع آهاً
منكِ إلاّ وفي لساني انعقاد

ومن جراح (بغداد) إلى جراح فلسطين، التي مازالت نازفةً من أكثر نصف قرن مضى.

ففي قصيدته (جراح وإباء) يعبر الشاعر محمد ماجد الخطاب عن آلام الشعب الفلسطيني الذي يتحمله بشموخٍ وغباء وصبر في ضحايا وشهدائها واستبسال أبنائها فقال:

عبرتْ في شموخها وإباها
وتباهت.. ومثلها يتباهى
حملت جرحها ندياًّ طهوراً
تنشدُ المجدَ زاكيات دماها
حملت حلمها كأغنية الصبح
ينير الإيمان عتمَ دجاها

لقد كتبت فلسطين بدماء أبنائها البررة قصة البطولة والفداء منذ الثلاثينات من القرن الماضي، فكانت بطولة أبناء فلسطين وفدائيها الذين عبر

عنهم شعراء فلسطين: إبراهيم طوقان - عبد الكريم الكرمي - عبد الرحيم محمود وغيرهم..

وتبقى القدس الجرح النازف للأمة الإسلامية والعربية، فهي تترنح تحت ظل الاحتلال الصهيوني الذي يقوم بتهويد أحيائها ومعالمها وأهلها يستصرخون وينادون أخواتهم في العالمين الإسلامي والعربي، وليس من مجيب سوى نفر من المجاهدين الذين لا زالوا يقارعون بطش وجبروت المحتل الصهيوني معاهدين الله والقدس الشريف على المضي في الجهاد والصمود ضد العدو المحتل، فقال الشاعر:

فاطمئني يا قدس فالفجر آت
والجراحاتُ من هنا مُبتداها
كلُّ جرح يا أمَّتي هو وعدٌ
أن يظلَّ الإباءُ يعلو الجباها

وفي قصيدته (مدينة على خارطة القلب) التي أهداها الشاعر إلى مسقط رأسه (طيبة الإمام) يظهر الشاعر حبه ووفاءه لبلدته، وهذا الحب والوفاء من طبيعة الإنسان الفطري السويّ، ذلك أن المكان الذي يولد فيه الإنسان يظل محبباً لنفسه على مدى الأيام والسنين، وقد قرأنا لأدباء وشعراء كثرٌ تغنوا بقراهم ومدنهم واشتهرت بهم كأبي العلاء المعري، والسياب، وسليمان العيسى، ومحمد عمران وغيرهم، ها هو الشاعر محمد ماجد الخطاب يبث حبه ووفاءه لمسقط رأسه بقصيدة مطولة مميزة مخاطباً إياها:

أطيبة الإمام وأنت عندي
كتاب كل أحرفه عبير
وأنت لكل أهل الفضل أفق
تضيء به الكواكب والبدور
وكيف أرى لسيدتي نظيراً

ومثلما كان الشاعر محمد ماجد الخطاب وفياً ومحباً لمسقط رأسه (طيبة الإمام) كذلك كان محباً ووفياً لزملاء الحرف والحياة، ها هو يسمعنا شذرات مما قاله لتكريم الشاعر العصامي الكبير عبد الوهاب الشيخ خليل في الحفل التكريمي الذي أقام له اتحاد الكتاب العرب بحماة، والشاعر عبد الوهاب الشيخ خليل غنيٌّ عن التعريف، فهو العصامي الذي ذاق مرارة الفقر والحرمان وعمل في مهنٍ متعددة كثيرة، ورغم ذلك لم ينقطع عن تلقي العلم حتى نال أعلى الشهادات دون أن يدخل مدرسة إلاّ عندما أصبح مربياً تخرجت على يديه عدة أجيال من الطلاب.

كما عرف الشاعر عبد الوهاب بحبه لزملائه والناس جميعاً، وهو شاعر مبدع وصف مدينة (حماة) وعاصيها بأجمل القصائد، فقال الشاعر محمد ماجد الخطاب:

حموي الهوى.. وسل عن غرامه
وسل المجد عن علوّ مقامهْ
موغلٌ في الندى على ثغر صبحٍ
توقظ الزهرَ قطرةٌ من غمامهْ
وهبْته حماةُ كلَّ شذاها
وكعطرٍ تسرَّبتْ في مسامهْ

ويشير الشاعر محمد ماجد الخطاب إلى دور الشاعر المكرَّم في تنشئة الأجيال فقال مخاطباً إياه:

يـــا (أبـــا الخيـــر) كـــم أنـــرت عقـــولاً
كـــم جهـــولاً أنقذتـــه مـــن ظلامـــه

كما أشار الشاعر إلى ما تميز بـه الشـاعر المكرَّم من خلق رفيع كريم فقال:

صـــرتَ مَعنـــىً لكـــل خلـــق كـــريمٍ
مـــا وَنـــى حِرصُـــنا علـــى اسـتلْهامهْ

ومن كان بمنزلة الشاعر المكرَّم الشاعر عبـد الوهاب الشيخ خليل يستحق أن يدعو له الشـاعر محمد ماجد الخطاب بطول العمر إذ قال:

فليمـــدَّ الـــرحمن عمـــرَك عمـــراً
هـــو ثـــرٌّ بمحتـــوى أيامـــه

مد الله بعمر الشاعرين المبدعين محمد ماجـد الخطاب والشاعر عبد الوهاب الشيخ خليل..

وشاعرنا محمد ماجد الخطاب وطنيٌ يحب كـل مدينة وقرية في وطنه والوطن العربي الكبير، كما أحب مدينته حماة وبلدته طيبة الإمام، وفـي عـام ٢٠٠٧ اختيرت مدينة حلب لتكون عاصمة للثقافة الإسلامية، وحلب معروفة بتاريخها العريـق فـي العلـوم والأدب والتـاريخ والحـرب والموسـيقى والغناء، ها هو الشاعر محمد ماجد الخطاب يعـدد بعض ما تميزت به حلـب، ومكانتهـا فـي قلـب الشاعر محمد ماجد الخطاب فقال:

(شـــهباء) مازلـــت أمّـــاً للعـــلا وأبـــا
وكـــلُ مجـــد إلـــى أفيائـــك انتســـبا
ولـــم تـــزل حلبـــات العـــزِّ شـــاهدةً
وذكرهـــا يمـــلأ الأيـــام والحقبـــا
فـــي كـــل ناحيـــةٍ للحـــب مدرســـةٌ
تُعَلِّـــمُ الـــدين والأخـــلاق والأدبـــا
كتبـــت بالســـيف تاريخـــاً وملحمـــة
وصـــغت فينـــا الـــدما والعـــرض والحســـبا

وتظهر محبة الشاعر محمـد ماجـد الخطـاب لمدينة حلب وحنينه إليها ببث ذاك الحب والحنـين والشوق في شعره الجميل المعبّر مسترسـلاً فـي استذكار تاريخ حلب البطولي إبَّان ازدهارها الأدبي والحربي في زمن البطـل القائـد سـيف الدولـة الحمداني والشاعر الكبير أبي الطيب المتنبي الـذي رافق الأمير القائد في حروبه مع الروم ووصـف بطولته وصف شاعرٍ متمكنٍ مما شاهده بأمِّ عينيه، فقال الشاعر:

حبيبتـــي.. وقـــوافي الشـــعر تحملنـــي
علـــى جنـــاح حنـــينٍ ظـــلَّ ملتهبـــا
أتيـــت مـــن شـــاطئ العاصـــي يســـابقني
شـــوق قـــديم إلـــى العصـــر الـــذي ذهبـــا
للســـيف.. للشـــعر.. للأحـــلام وادعـــة
لـــذلك المتنبـــي يشـــغل الغربـــا
لســـيف الدولـــة آبـــائي.. أراه هنـــا
يحـــارب الـــروم كـــي لا يـــدخلوا حلبـــا

ويتألم الشاعر محمد ماجد الخطاب لما آل إليـه حال الأمة العربية من ذل وهوان فتكالـب عليهـا الغرب المستعمر والصهاينة المجرمـون، نتيجـة للتشرذم والانقسام والتخاذل والتفرقة، وقد صـور

ذلك الشاعر محمد ماجد الخطاب أحسن تصوير، فاعتصره الألم والحزن الذي انعكس في قصيدته (في ذاكرة الجسد العربي) إذا قال منها:

جسدٌ تُراقِصُ جرحَهُ الآلامُ
وعليه حدُّ الذل راح يُقام
لم يبق منه سوى بقايا عزةٍ
يصحو على أطلالها وينام

إلى أن قال:

ما عدت أكتبُ للجمال قصائدي
فالعشق في زمن الهوان حرام

وسيتذكر الشاعر الخطاب تاريخ أمتنا البطولي المشرف حيث تم فتح الأخطار والأمصار بقيادة أبطال الأمة العربية الميامين الذين فتحوا هذه البلاد بقلوبهم قبل سيوفهم، فنشروا العلم وبنوا الحضارة العربية في مشرق الأرض ومغربها، في السند والهند والمغرب العربي، والأندلس، وهم اليوم يتجرعون كؤوس الذل والهوان فقال:

صدئتْ سيوف الفاتحين ولم يعد
فوق الخيولِ قتيبة وهشام
وجميع أحلام العروبة صُودرتْ
وتنكرت لرجالها الأيام

إلى أن قال:

تُشفى الجراحُ مع السنين وتنتهي
إلاّ جراح الذل لا تلتئام

ولا يتركنا الشاعر محمد ماجد الخطاب في حالة اليأس والإحباط، وإنما يمدنا بنسغ الأمل بأنه سوف تعود هذه الأمة إلى جذورها وتنفض عنها غبار الذل والهوان، وتعود لتاريخنا العربي الزاهر بالأمجاد والبطولات، التي قال عنها الله تعالى في كتابه الكريم: ((كنتم خير أمة أخرجت للناس))، وعنها قال المؤرخ البريطاني (توينبي): "ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب"، فقال الشاعر:

من هذه الأرض الأبيّة يبتدي
نور الحياة وينتهي الإظلام
نحن القلوبُ المفعمات مودةً
وقساتها حين البلادُ تُضامُ
أقدارنا أنا نمدُّ قلوبنا
جسراً لتعبر فوقه الأقوامُ
وإلى روابينا الأبية ينتمي
علِمُ الفداء.. وشيخه (القسَّامْ)

تلك إطلالة سريعة على ديوان الشاعر المبدع محمد ماجد الخطاب (عناق المطر)، الذي عانق فيه المطر والوطن، وقفنا فيها على قصائد قليلة ويبقى الكثير منها يحتاج لدراسة أخرى وخاصة بما يتعلق بشعره الغزلي الصوفي الجميل.

العلامة جبرائيل سعادة في حياته وآثاره



سيرة حياته:

عند الثالثة من ظهيرة يوم الجمعة الواقع في ١٦/٥/١٩٩٧ دقت أجراس كاتدرائية القديس جاورجيوس في اللاذقية حزناً على الفقيد الكبير العلامة المرحوم جبرائيل سعادة.

ولد جبرائيل وديع سعادة يوم الأربعاء في ٢٩/ ١١/ ١٩٢٢، والدته: مرتا نصري، أخواته: نائلة، إيدما، أسماء، أوديت. إنه أديب وباحث موسيقي ومؤرخ، مغرم بالآثار، حاد الذكاء حاضر البديهة، يدهشنا دون أن يسعى إلى ذلك فهو قطعة فسيفساء من العطاءات، درس في المعهد الفرنسي ببيروت فنال الإجازة في الحقوق عام ١٩٤٤.

أسس نادي الشباب عام ١٩٤١ الذي أصبح لاحقاً نادي تشرين.

أسس نادي اللاذقية الرياضي وانتخب رئيساً له (أصبح فيما بعد نادي تشرين).

أسس رابطة أصدقاء أوغاريت عام ١٩٥٠.

أسس عام ١٩٦٣ فرقة اللاذقية للغناء الشعبي.

أسهم في تأسيس جمعية أصدقاء الفقير الأرثوذكسية عام ١٩٣٩.

أسهم في تأسيس حركة الشبيبة الأرثوذكسية وانتخب رئيساً لفرعها باللاذقية.

أسهم في تأسيس الثانوية الوطنية الخاصة في اللاذقية عام ١٩٤٧.

أسهم في إنشاء فرع لعاديات حلب في اللاذقية وانتخب رئيساً له.

أسهم في تأسيس النادي الموسيقي عام ١٩٤٥.

عضو اتحاد الكتاب العرب بدمشق.

عضو جمعية البحوث والدراسات.

عضو في مركز الأبحاث التاريخية والأثرية التابع لمديرية الآثار.

عضو لجنة الفنون الشعبية في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بدمشق.

عضو غرفة زراعة اللاذقية عام ١٩٥٣.

عضو المجلس الأعلى لرعاية الشباب في اللاذقية عام ١٩٦٠.

عضو لجنة تنشيط السياحة عام ١٩٧٥.

عضو المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم بدمشق ١٩٦٣.

عضو في مجلس إدارة محافظة اللاذقية.

رئيس جمعية خريجي المعاهد العالية عام ١٩٦١.

رئيس فرع اتحاد الكتاب العرب باللاذقية.

رئيس عمدة الثانوية الوطنية (١٩٤٧ - ١٩٥٦).

شارك في مؤتمر الآثار الكلاسيكية الذي عقد في دمشق ١٩٦٩.

شارك في ندوة الدراسات الأوغاريتية في اللاذقية عام ١٩٧٩.

شارك في الندوة الدولية لعصر النور عام ١٩٨٦.

شارك في الندوة التي أقيمت بدمشق بمناسبة مرور ثمانمئة سنة على معركة حطين عام ١٩٨٧.

شارك في معرض الأيقونات الذي أقيم بدمشق عام ١٩٩٧.

صاحب المكتب السياحي (المنارة) في اللاذقية.

قنصل فخري لدولة اليونان في اللاذقية عام ١٩٥٦.

كرمته مطرانية الروم الأرثوذكس في اللاذقية عندما أنهى خدمته للثانوية الوطنية كنائب لصاحب المدرسة بأن أعطته مفتاحاً من ذهب مقابل خدماته.

كرمته جمعية العاديات واتحاد الكتاب العرب بحفل تأبيني إثر مرور أربعين يوماً على وفاته كما أقامت له جامعة تشرين حفلاً تأبينياً وبدوره أقام النادي الموسيقي حفلاً تأبينياً.

كرمته حكومة اليونان بصفته قنصلاً لها في اللاذقية منذ عام ١٩٥٦.

كرمته فرنسا ومنحته وسام جوقة الشرف وهو وسام رفيع جداً.

كرمته جامعة تشرين باللاذقية عندما منحها مكتبته الخاصة وسجلّ وصيته.

كرمه اتحاد الكتاب العرب.

كرمته مديرية الثقافة باللاذقية وأطلقت اسمه على قاعة المطالعة في المكتبة العامة بالمركز الثقافي.

كرمه مجلس مدينة اللاذقية وأطلق اسمه على الشارع الذي كان يقطنه.

التقى طه حسين، وديع الصافي، محمد القصبجي، صباح فخري، أندريه جيد، فرانسوا موریاك، الأمير فيليب زوج الملكة إليزابيت الثانية، راكسليف (حفيد العالم الفرنسي باستور) وغيرهم.

قال عنه الأديب السوري حنا مينه: "في اللاذقية بحران بحر الماء وبحر الآثار.. فإلى بحر الآثار قبطان مركبه العظيم الصديق العزيز جبرائيل سعادة..".

قدمه أحد علماء الآثار في محاضرة له في الجامعة الأمريكية ببيروت إذ قال: "إن لغتك يا أستاذ لا تنسجم مع لغة عالم الآثار بل مع شطحات الأدب، فإنك هجرت الأدب كما قلت ولكنه يحاول أن ينتقم منك دائماً فيمد رأسه من خلال كلامك وجملك من حين إلى آخر".

قال عنه الأستاذ فؤاد يازجي: "الأدب عالق على رأس قلمه".

قال عنه أندريه بارو مدير الأبنية الأثرية في فرنسا حين قدمه في إحدى محاضراته بمتحف اللوفر: "إن الرجل الذي أمامكم هو عالم آثار وهو شاعر لأنه يحب بلاده..".

قال عنه الأستاذ نجيب سعادة: "إن محبته الكبيرة لوطنه وتعلقه به حثه على البحث والدراسة في تاريخ وآثار وطنه".

قال عنه الصحفي حسن م. يوسف إنه كان منارةً للاذقية ردحاً من الزمن.

حاز على الجائزة الأولى على قصيدة كتبها بالفرنسية عندما كان في المدرسة ببيروتٍ وكان

هذا الفوز بالنسبة له بمثابة محفز شخصي للمضي في الشعر.

حاز على الجائزة الأولى في المسابقة التي نظمتها وزارة الثقافة في الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٦٠ عن مسرحيته: (العاص لن ينسى).

كان يقيم سهرة كل أسبوعين يوم السبت في منزله مخصصة للموسيقى العربية على مدى ساعة يضع برنامجها بنفسه.

كان يقيم سهرة لجمعية العاديات يوم الإثنين تتضمن محاضرة مع عرض صوتي في منزله.

كان يقيم سهرة يوم الثلاثاء من كل أسبوع في منزله يقيمها بنفسه أو يحيل مهمة القيام بها للأستاذ راؤول فيتالي وتتضمن سماع مقطوعة كلاسيكية غربية مع شرح لها.

كان يقدم في الإذاعة برنامجاً مطولاً بالاشتراك مع الأستاذ سعد الله آغا القلعة عن أم كلثوم.

وقدم عدة دراسات مطولة عن أوغاريت.

ألقى في الإذاعة السورية برنامجاً بعنوان مع الموسيقا العربية.

يعد نفسه باحثاً موسيقياً أكثر من كونه موسيقياً أو ملحناً.

كان يقول: "الموسيقى ولدتُ على حُبها وترتبط بي نفسياً".

قضى عمره في العديد من المطالعات والبحث العلمي والغوص في التراث والموسيقى. عشق الآثار وكان ملماً بأسرارها متابعاً لكل جديد في أخبارها، وعندما سُئل عن اهتمامه الكبير بآثار بلاده أجاب: "كيف يمكن للإنسان أن يحب شيئاً لا يعرفه؟ الوطن ليس أرضاً فحسب. هل أقول إن حبي للوطن ازداد منذ تلك الأيام ولا يزال يزداد كلما عرفته أكثر؟

زار أقطار عربية وأوروبية عدة، ونشر مقالات في مجلات التبغ، النعمة، الحوليات الأثرية العربية السورية، المعرفة، العمران، الديار، تشرين، الوحدة.. إضافة إلى بعض المجلات الفرنسية، الإيطالية والألمانية..

ألقى ١٩ محاضرة في معظم المدن السورية وألقى بتكليف من الرئيس حافظ الأسد محاضرات في فرنسا، إيطاليا، سويسرا، بلجيكا ويوغسلافيا في نيسان وأيار ١٩٧٠.

قدَّم ٩٠ حديثاً عن السياحة في الإذاعة العربية السورية بين عامي ١٩٦٩ - ١٩٧١ ومنذ مطلع عام ١٩٧١ كان يقدم حديثين أسبوعيين، مرة بالعربية وأخرى بالفرنسية.

في صيف ١٩٦٦ هتف سفير اليونان بدمشق إلى قنصله الفخري باللاذقية جبرائيل سعادة طالباً منه أن يكون في استقبال أحد الأمراء اليونان الذي يزور اللاذقية في ذلك الحين، وهو ميشيل ابن عم الملك، فذهب إلى فندق السياحة والاصطياف للترحيب بسمو الأمير فوجده برفقة زوجته وشخصين آخرين فحياه وقال له: "أنا قنصل اليونان باللاذقية وقد كلفوني أن أضع بتصرفك كل ما تحتاج إليه من خدمات فنظر إليه الأمير وكان لا يزال ممدداً على كرسيه وقال له: شكراً أنا لا أريد شيئاً، ولما استدار القنصل وهم بالذهاب حانقاً من الاستقبال الفاتر الذي لقيه من الأمير، ناداه الأمير قائلاً له عفواً سعادة القنصل، أريد أن التقي بالمدعو جبرائيل سعادة حيث قرأت له وسمعت عنه الكثير وأريد أن أتعرف عليه، فأجاب القنصل وقال: أنا هو جبرائيل سعادة، الذي تريد أن تتعرف عليه، هنا وقف الأمير الذي لم يقف لقنصل بلاده بل هبَّ واقفاً لمجرد ذكر اسم هذا الإنسان بكل احترام وتقدير.

كان جبرائيل سعادة دائماً يختتم بحوثه بالتوصية إلى وزارة السياحة بالمهام التالية:

- توفير ثقافة سياحية إلى جميع المعنيين بأمور السياحة.

إيجاد أفضل السبل التي تؤمن النوعية السياحية للجميع.

دراسة واقعنا السياحي، دراسة علمية بالاستناد خاصة إلى الإحصائيات وتحليلها بكل أمانة ومقارنتها مع إحصائيات البلاد الأخرى.

الاطلاع على السياحة العالمية.

الاطلاع على كل ما ينشر عن السياحة السورية في الخارج.

الوقوف بدقة على آراء السياح أثناء تجوالهم في ديارنا.

كان منزل الراحل في وسط مدينة اللاذقية مقابل مقهى البستان (الذي كان فيما مضى ملتقى أدباء ومثقفي اللاذقية) مفتوحاً أمام الجميع خاصة للطلاب والباحثين والدارسين الذين يأتون إليه ليستفيدوا من علمه ومن مكتبته الضخمة، التي كان يعتني بها كثيراً، ويأتي إليها بالكتب من بيروت ودمشق والقاهرة وباريس وغيرها، وخصص صالوناً في منزله به طاولة وكراس للجلوس للأشخاص الذين يودون البحث في كتبه، تضم مكتبته ستة عشر ألفاً من المجلدات في جميع فنون الثقافة والأدب والعلوم، وضمت مكتبته العديد من المجلات الأدبية والتاريخية والجغرافية والآثارية والجيولوجية والفيزيائية واللغوية والعلمية، وقد كان يشتري الكتاب ولو كان سعره مرتفعاً ومن أي بلد، وآلت المكتبة إلى جامعة تشرين حسب وصية الراحل كما أن كتبه الدينية آلت إلى مطرانية الروم الأرثوذكس في اللاذقية.

عندما زار جبرائيل سعادة متحف اللوفر في باريس سنة ١٩٧٠ تجول في أقسامه العديدة ولفت نظره تسمية قاعة باسم فلسطين وليس باسم إسرائيل فشكر مدير المتاحف في فرنسا العالم الأثري أندريه بارو فتنهد الأخير وقال إنه يومياً يتلقى سيلاً من الشتائم من اليهود وهذه المرة الأولى التي نشكر فيها من العرب.

كان لديه شعور وطني بسيط لإنسان كبير جداً في تفكيره وكان يؤرقه هاجس أنه: "أما حان لنا أن نكتب تاريخنا بأنفسنا..".

كان له اهتمامات متعددة، لكنه كان يفضل التخصص في جانب واحد من العمل الإبداعي بدلاً من توزع اهتمامه في عدة مجالات ولولا ذلك لكان أعطى أكثر، ولكن الواحد منهم قاده إلى الآخر وهكذا قدِّر له أن يكون كاتباً موسوعياً متعدد الاهتمامات.

عثر جبرائيل سعادة بالصدفة في مكتبة متخصصة بكتب الاستشراق، في باريس على كتاب عنوانه (رأس شمرا)، وهو الاسم الحديث لأوغاريت فإذا هي المنطقة الأثرية التي تبعد عن اللاذقية عشرة كيلو مترات إلى الشمال، فاشتراه رغم سعره المرتفع وهكذا بدأ يهتم بهذه المنطقة الأثرية وتوسع بعد ذلك اهتمامه بالتاريخ والآثار.

لقد نقل جبرائيل سعادة اللاذقية التي كان مريضاً بمحبته لها، إلى أصقاع المعمورة فنشر عنها وعن مواقعها الأثرية والتاريخية مقالات عدة في مجلات عربية وأجنبية فبشر بها.

هذه قصة رجل أحب وعشق المدينة التي نعيشها ونعايشها، أراد أهله أن يكون تاجراً فأصبح كاتباً وأديباً وموسيقياً فخسر المال وكسب محبة الناس والشهرة فعمق محبته للمدينة التي أحب فعلى كل منا أن يكون ثقافياً، مشروع جبرائيل سعادة آخر فلا ينقص أيا منا سوى الإرادة التي قال فيها نابليون: "لا مستحيل لصاحب الإرادة" ولا بدَّ لنا في النهاية من أن نتمنى أن يكون هذا المقال بمثابة محفِّز لدور النشر ما لإعادة طباعة مؤلفاته ضمن مجلدين تحت عنوان (الأعمال الكاملة للعلامة جبرائيل سعادة).

آراؤه

١- الترجمة علم قائم بحد ذاته، ويجب على من يقوم بالترجمة أن يكون لديه اهتمامات أدبية وليس فقط من يجيد لغة أجنبية ويجب ألاّ تكون عملية اختيار الكتب متعلقة بالمزاج والموضة وتحدد جودة الكتاب المترجم بأنه إذا حُذف ولم

يتغير شيء ولم يترك فراغاً فلا قيمة له عندئذ، ولسعادة مطلب بأن يقوم مديرو الآثار في وطننا العربي بإحداث دائرة خاصة بالترجمة أسوة بدوائر التنقيب والترميم تكون مهمتها ترجمة كل ما يكتب عن آثارنا وتاريخنا في اللغات الأجنبية.

٢- وجه العلامة جبرائيل سعادة رسالة مفتوحة باللغة الفرنسية للأديب الفرنسي فرانسوا مورياك (١٨٨٥ - ١٩٧٠) الحائز على جائزة نوبل للآداب، ينوه من خلالها إلى حق المسيحيين العرب بالحج إلى الأراضي المقدسة في فلسطين المحتلة أسوةً بباقي المسيحيين وذلك دفاعاً منه عن قضايا العرب عموماً ومسيحييهم على وجه الخصوص تجاه الصهاينة.

٣- رافق السفير الهولندي تورمبي الفيلسوف في زيارته لقلعة صلاح الدين وفي الطريق حدثه السفير عن فلسطين وكان آراؤه خاطئة غير محقة نتيجة تأثره بالأفكار الصهيونية فبدأ سعادة يشرح له الحق العربي المغتصب وأبعاد القضية فتغيرت مواقف السفير وأصبح أكثر إيجابية في قضية فلسطين.

٤- يوجد نوعان من البحوث التاريخية الأول علمي بحت موجه إلى الاختصاصيين والمؤسسات العلمية والثاني موجه إلى الجمهور عامةً يجب أن يتصف بصفات الأدب، فيجب أن يكون بلغة شيقة وتتجلى فائدة النوع الثاني أنه يؤمن انتشار المعلومات التاريخية إلى القراء العاديين.

٥- يعشق قراءة القرآن الكريم ويحب سماعه مجوداً.

٦- التاريخ ذاكرة الأمة فالأمة بلا تاريخ كالإنسان بلا ذاكرة.

مؤلفاته وترجماته:

١- وراء القضبان: مجموعة قصصية تحتوي على ١١ قصة تركز على الجانب النفسي للبشر، عنوانها الآخر دوار السجناء فالأشخاص الذين تتناولهم القصص يبدون وكأنهم أناس يعيشون في عراك مستمر فيهم سجناء أهوائهم أو خيالهم أو ظروف حياتهم، والقصص متأثرة بالأدب الفرنسي الكلاسيكي وترجمت عن الفرنسية، ويفصل بين القصص أقوال تتعلق بها أو لوحات أوحت للكاتب كتابتها.

٢- محافظة اللاذقية: كتاب يتحدث فيه عن اللاذقية تاريخياً وأثرياً وجغرافياً، سواء من ناحية المساحة، الموقع، الامتداد، والتربة ونوعها وكيفية توزعها إضافة إلى الحقب الجيولوجية التي مرت باللاذقية وثرواتها المعدنية ومواردها المائية والمناخ والقرى والتقسيمات الإدارية والتوزع السكاني والحياة الاقتصادية العامة للمحافظة سواء أكانت تجارة أم صناعة أم زراعة، والطوائف الدينية في المحافظة والحياة الثقافية فيها (تربية، تعليم، مؤسسات ومراكز ثقافية والواقع السياحي الاصطيافي فيها، والكتاب مرفق بالرسوم والخرائط التي تساعد الباحث والقارئ على فهم أدق لمضمون الكتاب وكل هذا وفق أسلوب رصين دقيق.

٣- القديس إليان الحمصي: دارسة تتكلم عن قديس من حمص يدعى إليان، عاش في القرن الثالث يتحدر من عائلة مرموقة والده المستشار الخاص لحاكم البلاد، إلاّ أنه ترك كل شيء وتبع المسيح وأصبح طبيباً يداوي الأسقام ويبلسم الجراح، ويعد الكتاب من أهم المراجع عن القديس إليان لما يحمله من أهمية في الاستناد إلى مصادر ومخطوطات هامة مما يجعل البحث ذا قيمة تاريخية ودينية كبيرة.

٤- أبحاث تاريخية وأثرية: عبارة عن مجموعة مقالات نشرت باللغة الفرنسية، في مجلات فرنسية وعربية وإيطالية، اعتمد في أبحاثه على ٢٥٠ مرجعاً سواء أكان مؤلفاً قديماً، مخطوطاً، كتاباً حديثاً، وفق أسلوب شيق مرفق بالرسوم التوضيحية، يتحدث الكتاب عن السلطان

إبراهيم بن الأدهم من القرن الثاني للهجرة، دير الفاروس في القرن السادس للميلاد، تاريخ قلعة صهيون (صلاح الدين حالياً) نهر العاصي وصفاً تاريخياً وأهميةً، الحياة الثقافية والتعاليم في مملكة أوغاريت العائدة للقرن الخامس قبل الميلاد، عن تاريخ سوريا عموماً وكيفية تدوينه، الجبل الأقرع والحديث عنه كأسطورة وتاريخ، وتعد أبحاث هذا الكتاب أهم مرجع في لغتنا العربية يمكن أي باحث الاستفادة منها لما تحمله في دقة وموضوعية ومرجعية وموثوقية.

٥- المختصر في تاريخ اللاذقية: يتحدث عن اللاذقية منذ أن كان اسمها راميتا أي مرتفعة قبل قرون من الميلاد، وتزامنها مع العصور الهيلينستي (الإغريقي)، الروماني، البيزنطي، الحروب الصليبية على بلادنا وحملاتها الدينية على أجزاء من الشرق ثم يتحدث عنها عبر الاحتلال العثماني والانتداب الفرنسي وعهد الاستقلال، ويسرد الأسماء التي دعيت بها اللاذقية خلال أكثر من عشرين قرناً وهذا الكتاب يتضمن الوقائع التاريخية والمفصلية التي لعبت دوراً في المدينة.

٦- رأس شمرا وآثار أوغاريت: قدّم له عالم الآثار الشهير كلود شيفر، يعرض الكتاب تفصيلات دقيقة عن رأس شمرا من اكتشافها سنة ١٩٢٨ حتى عام ١٩٥٤ ويتحدث عن سكان مملكة أوغاريت الأوائل ونمط عيشهم ومدى تأثرهم بغيرهم من حضارات وشعوب والتنظيم الإداري للمملكة وبلاطها وعمرانها وتشريعها وعبادات أهلها وأديانهم.. أبجدية أوغاريت وتاريخ نشأتها ووجودها والمدى الكبير لتأثيرها ويحوي الكتاب على دليل للزائر مرفق بالصور والرسوم والخرائط التي تسهل على القارئ الفهم الأعمق لأوغاريت.

٧- عندما تغني اللاذقية: الجزء الأول، يتضمن مجموعة من الأغاني رشحت عن التراث اللاذقي وكتب له سعادة مقدمة يفسر فيها بعض الظواهر التراثية والكتاب يشتمل على أهم أغاني تراث اللاذقية وبعض المناطق من أريافها.

٨- دليل المتحف الوطني بدمشق: ترجمه من العربية إلى الفرنسية، مديرية الآثار والمتاحف ١٩٦٩.

٩- الأبتر: رواية لممدوح عدوان: ترجمعها من العربية إلى الفرنسية ١٩٧١.

١٠- معلومات موجزة عن رأس الشمرا وأوغاريت: يتحدث الكتاب عن قصة اكتشاف الموقع والحفريات القائمة فيه وموقعه وشكله وطبقاته التي يتألف منها ولمحة تاريخية عن المملكة من زمن نشوئها وتكوينها، وما ظهر من المملكة أثناء اكتشافها وكما يتحدث بعجالة عن الحضارة الأوغاريتية والوثائق المكتوبة التي تشير إليها والأبجدية الأوغاريتية مع ترجمتها والكتاب مرفق بمخطط لموقع المملكة الأوغاريتية بشكلها الحالي بعد عمليات الحفر والتنقيب ويوجد مجلد باللغة الفرنسية عن اللاذقية قضى سعادة في تأليفه الوقت الكبير والجهد الدؤوب خلال عشرات السنين وسيطبع المجلد باللغة الفرنسية ومن ثم يترجم ويطبع بالعربية.

من مقالاته:

في الحوليات الأثرية العربية السورية ١٩٧٩ - ١٩٨٠.

حول مدن وقرى المملكة الأوغاريتية: يتحدث المقال عن أوغاريت في نشأتها وامتداد رقعتها والمدن التي تتألف منها وأهمية دراسة النصوص الأوغاريتية كمعبر لفهم حياة المجتمع الأوغاريتي ومدى تأثير الألفاظ الأوغاريتية على أسماء القرى بصورتها الحالية وأعمال الحفريات، وأهمية التنقيب في الموقع كتعبير عن الحضارة الأوغاريتية وكيفية القيام بالتنقيب وبرامج بعثات التنقيب الأجنبية ونشر نتائج البعثة كدراسة لتكون مرجعاً هاماً للبعثات في سوريا.